المكتبة الثقافية
٤٦٠

صانع الأسطورة
الطيب صالح

تأليف

د. أحمد شمس الدين الحجاجي



١٩٩٠

الاخراج الفنى

جرجس ممتاز

الاهـــداء

الى شيخى : الشيخ محمد عبد العزيز
الأقصرى شيخ الطريقة الرفاعية



الأسطورة ليست مرادفا للخيال أو الكذب أو الايهام كما أنها ليست مقابلا للواقع ، فهى واقع وحقيقة لا يتطرق اليهما الشك بالنسبة لمعتنقيها . ولقد حدد لويس سبنس علم الأساطير بأنه « دراسة الدين البدائى أو شكل من أشكاله الأولى عندما كان حقيقة معاشة » (١) . غير أن علم الأساطير يتجاوز ذلك كثيرا ليشمل أديان الانسان القديم والحديث والمعاصر وانسان ما قبل عصر الكتابة وما بعده . فهى إعتقاد الانسان فى عالم ما وراء الطبيعة .

ولا يعنى هذا البحث بكلمة « صانع الأسطورة » خلق دين جديد أو تشكيله فهذا ليس فى مقدور فرد

1. Spence, Lewis. **An Introduction to Mythology. London:** George G. Harrap & Company LTD, 1921, «P 121»

اذ أن الأسطورة اعتقاد جماعى تكونه تجربة الانسان مع الطبيعة والكون • وانما يعنى آن صاحب قصة عرس الزين الطيب صالح استطاع آن يستخدم الأسطورة فى عمله الفنى وآن يوظفها « كأداة لنقل عالمية التجربة الانسانية » (٢) • وهو لم يصنع أكثر من أن يعيش واقعه وينقل هذا الواقع بمعتقداته تماما كما يتحرك أمامه • سبقه الى ذلك كتاب التراجيديا اليونانية فهم قد نقلوا صورة الاعتقاد فى مجتمعهم فى مسرحياتهم من خلال مجموعة من الأساطير لونت حسب رؤيتهم لواقعهم ، فكانت آوديب الملك سوفوكليس واقعا جديدا لم تخرج عن حدود الأسطورة ولا المعتقد اليونانى ، كما أنها لونت بصبغة اعتقاد المؤلف فى الأسطورة حتى أصبحت آوديب شيئا جديدا من صناعته • كانت قناعات الانسان اليونانى بها كبيرة فهى دين وهى تاريخ وهى واقع •

2. Manton, G.R. **Myth and the Modern Imagination,** ed. by Margeret Diaziel Dunedin University of Otago Press 1967. « P. 9 ».

ولا يختلف ما صنعه الطيب صالح فى عرس الزين ودومة ود حامد عما صنعه سوفوكليس فى أوديب الا أنه لم يكن محتاجا أن يعيد صياغة أسطورة اذ كان لديه التراث الشعبى السودانى والعربى الضخم للمعتقدات فى الأولياء والقديسين وكراماتهم •

والمتصوفة كون قائم بذاته لهم تأثيرهم الكبير فى الحياة الاجتماعية فى المدن والأرياف والواحات حتى انه لا تكاد تخلو قرية من قرى وادى النيل من ولى يتجه اليه أهلها طلبا للبركة •

استخدم الطيب صالح الأسطورة المعاشة فى الواقع السودانى • نقلها ، وبنى عليها عملين من أعماله هما « عرس الزين » و « دومة ود حامد » • ورسم من خلالهما الأسطورة بكل أبعادها فكان بجمعه لجزئيات الأسطورة الشعبية فى وحدة متناسقة صانعا لها •

نقلت قصة عرس الزين عالم قرية الزين • لم يذكر المؤلف اسم القرية فى هذه القصة اذ يبدو أنه أرادها أن تكون « أى قرية سودانية » وعاد ليحددها فى قصتيه

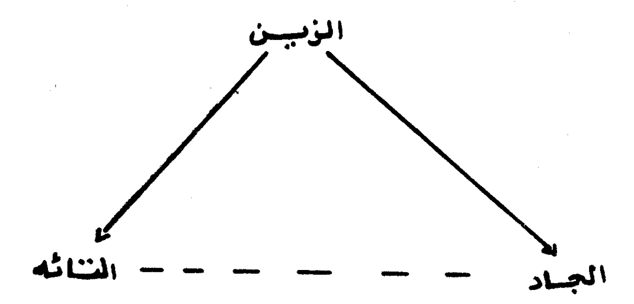
« بندر شاه » و « مريود » فيذكر أنها « دومة ود حامد » . وكان المؤلف محقا فى عدم ذكر اسم القرية فى « عرس الزين » فقد استطاع أن يجعل قراءه يتعرفون على هذه القرية من واقعهم لا من واقعه .

عالم قرية الزين مملوء حياة ، مملوء بالمقابلات . وكان الزين بؤرة هذا العالم .

عالم يعيشه الزين وعالم يقترب من الزين وعالم يبعد عن الزين بعدا كبيرا ، فهو مركز الرؤية وموضح الخطوط الأصلية لعالم القرية .

رسمت شخصية الزين درويشا مجذوبا تتضح فيه خصائص القديس متكاملة كما تعرفها قرى العالم العربى . وهى بصورتها العامة والخاصة محيرة لذوى الأفهام ، فالزين ذو بعدين : بعد المجذوب الناقص العقل التائه عن العالم المحيط به الذى يتحول الى السخرية من الزين . وبعد آخر هو بعد الرجل الجاد الذى يقوم بأعمال لا يقوم بها أقوى الرجال من أهل قريته فهو واحد فيهم واحد منهم .

هذان البعدان يقفان متقابلين



تختلف صورة الزين عن صورة أهل القرية . كان ميلاده غريبا . ولد كما يولد أبطال الأساطير تصحب ميـلادهم الغرائب والمعجزات . ولد حـورس الاله المصرى القديم من علاقة جنسية تمت بين أمه ووالده المتوفى . وولد كل من بوذا وزرادشت وعيسى من أم عـذراء .

وفى السير الشعبية تم ميلاد أبى زيد كما تمنته أمه أن يكون فى سـواد الطـائر الذى رأتـه يشتت الطيور ويهزمها .

وتذكر المعتقدات الشعبية التى تدور حول السيد البدوى أنه ولد بأسنان كاملة وكان يتكلم . ولما كان ذلك غريبا فقد اختبر الطفل ليتبين ما اذا كان ذلك معجزة من الله أم من الشيطان وأثبت السيد البدوى أن معجزة ميلاده من الله سبحانه وتعالى .

ولقد صحب ميلاد الزين أيضا حدث خارق للعادة، فان الأطفال حين يولدون « يستقبلون الحياة بالصريخ هذا هو المعروف ولكن يروى أن الزين والعهدة على أمه والنساء اللاتى حضرن ولادته أول ما مس الأرض انفجر ضاحكا » (٣) وفى مولد الزين بهذه الصورة تغير للسنن المعتادة فى ميلاد الأطفال . ولقد صحبت الضحكة الزين اذ استمر ضاحكا طوال حياته واستجابت القرية لهذه الضحكة فأصبحت جزءا منها .

اتخذ شكل الزين هيئة غريبة عن الرجال فكان شكله مغايرا عن التكوين الطبيعى لهم ، فلم يكن على

---

(٣) **الطيب صالح** . عرس الزين . بيروت . دار العودة . ١٩٧٠ ص ١٥ .

وجهه شعر اطلاقا . لم تكن له حواجب ولا أجفان وقد بلغ مبلغ الرجال وليست له لحية أو شارب » [٤] .

احتار أهـل القرية فى شخصـية الزين فكثيرا ما ينظرون اليه على أنه فاقد الاتزان يتجمهر الأطفال حوله فيرميهم بالحجارة . ويجر ثوب فتاة مرة ويهمز امرأة فى وسطها أو يقرصها فى فخـذها مرة أخرى . دفعت هذه المواقف أهل القرية ألا يأخذوه مأخذ الجد ، غير أن للزين لحظـات جد حقيقية تظهر حين يواجه بالحب .

قتل الحب الزين وهو حدث لم يبلغ مبلغ الرجال، وكانت الفتاة التى قتلته بحبها هى عزة بنت العمدة ، فذات يوم وفى جمع عظيم من الرجـال نفرهم العمدة لاصلاح حقله . ارتفع صوته « عوك يا أهـل الحلة يا ناس البلد عزة بنت العمدة كاتلالها كتيـل . الزين مكتول فى حوش العمدة » [٥] فوجىء الناس بما يقوله الزين فقد كان ما يقوله خطيرا ، وأخطر من قوله أنه

---

(٤) المصدر نفسه . ص ١٦ .

(٥) المصدر نفسه. ص ٢٦ .

يقوله أمام العمدة نفسه ، غير أن الموقف خفت حدته حين انفجر الناس ضاحكين فان أحدا لم يتعامل معه بجدية حتى ان العمدة المشهور بالصرامة استغرق مع الناس فى الضحك . وأخذ يستغل الزين يسخره « فى أعمال كثيرة شاقة يعجز عنها الجن » (٦) .

هذا جانب من صورة الزين يضعه فى مرتبة العجزة الناقصى التكوين العقلى . والقرى العربية تصنف هذا النوع من البشر الى ثلاثة أقسام : مرتبط بالاله وهم من اختارهم الله تعالى . والقسم الثانى شيطانى اختارهم الشيطان . أما القسم الثالث فهم المرضى .

أين يقف الزين من كل هؤلاء ؟

توضح القصة منذ البداية أنه ارتبط بقوى كونية سببت تغيرا فى تكوينه الجسمانى وكان ذلك نتيجة حادث .

كان فم الزين مليئا بأسنان بيضاء كاللؤلؤ كما

(٦) المصدر نفسه .

تقول أمه « ولما كان فى السادسة ذهبت به آمه الى قريبات لها ، فمرا عند مغيب الشمس على خرابة يشاع أنها مسكونة وفجأة تسمر الزين مكانه ، وأخذ يرتجف كمن به حمى ثم صرخ وبعدها لزم الفراش آياما .
ولما قام من مرضه كانت أسنانه جميعا قد سقطت الا واحدة فى فكه الأعلى وأخرى فى فكه الأسفل » (٧)
والخرابات فى الاعتقاد الشعبى مسكونة بقوى سفلية ويبدو أن هذه القوى كانت تطارده فهل اتصل الزين بالقوى السفلية الشريرة واستسلم لها ؟ بالطبع لا ، فالقصة لا تربطه بأى رباط بالعالم السفلى الشرير بل على العكس تقدمه بصورة الدرويش الذاهل المنعزل عن العالم ، وهو فيه ، لا يمسه منه شىء غير الضحك والسخرية معه أو عليه . ظهر بصورة من أسقط عنه التكليف الذى يقول به الصوفية ، فهو من المجاذيب الفاقدى القدرة على الصحو وهؤلاء يسقط عنهم التكليف .

وأهل الريف يفرقون بين المجنون والمجذوب تفريقا

---

(٧) المصدر نفسه . ص ١٥ .

واضحا • واذا كان العرب قد ربطوا بين الجن والجنون فان الصـــوفية قد ربطوا بين الله وبين الجذب فالله هنا « هو الجاذب لهم بعطفه » [8] •

ولا يختلف المتصوفة فى المجذوب بينما يدينه من لا يؤمن بالتصــوف بالجنون وقد سئل أحد المتصوفة « كيف حالك مع المولى ؟ قال ما جفوته منذ عرفتــه قيل متى عرفته قال منذ سمونى مجنونا » [9] •

ولقد دافع ابن عربى عنهم :

مجـانين الا أن سر جنونهـم
عزيز على أبوابه يسجد العقل

وهنا لا يتم الفصل بين العالم المرئى والعالم غير المرئى فى اعتقــاد المتصــوفة فاذا كان الانســان غير المتصــوف أو غير المتدين يرى عالم العقل هو عــالم المــادة ويرى العالم غير المرئى خياليا وغير عقــلانى

---

(٨) **البخارى الكلاباذى ، أبو بكر محمد بن اسحاق** . التعرف بمذهب أهل التصــوف . نشر أرثر جون أربرى . القاهرة : مكتبة الخانجى ، سنة ١٩٣٣ . ص ٣ .

(٩) المرجع نفسه . ص ٤٠ .

فان المتصوفة يرون هذا العالم وحدة واحدة • عالم العقل وعالم الروح يمتزجان ، فالعقل هنا ينفذ لعالم الروح ويلتقى به فى وحدة واحدة • فالعقل وحده لا يستطيع أن يصل الى معرفة هذا العالم • فلابد لهذا العقل من عون الهى ليدركه • ولقد قال أبو بكر السباك أحد كبار المتصوفة « لما خلق الله العقل قال له من أنا فسكت فكحله بنور الوحدانية ففتح عينيه ، فقال أنت الله لا اله الا أنت ، فلم يكن المعقل أن يعرف الله الا بالله » (١٠) •

ومن هنا كان اختلاف مواقف أهل القرية من الزين •

عرف الصوفية أنواعا ثلاثة للمجاذيب « مجذوب غير سالك • وسالك مجذوب • ومجذوب سالك » (١١) •

---

(١٠) المرجع نفسه • ص ٣٩ •

(١١) الآملى • حيدر • كتاب نص النصوص • مخطوط فى مكتبة مجلس الأمة بطهران • مأخوذ عن هوامش الحكيم الترمذى الشيخ أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن ، ختم الأولياء • تحقيق اسماعيل يحيى • بيروت • المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٥ • ص ٥٠٧ •

فأين يقع الزين من هذه الأنواع ؟

تحدد القصة صورة الزين بأنه ليس ذلك السالك الى طريق الله ثم تصيبه الجذبة بعد ذلك . وليس هو المجذوب السالك الى طريق الله ، وانما يتبدى من النوع الأول . المجـذوب غير السالك وهو ما وصف بأنه « من اصطفاه الحق واختصه بحضرة أنسه وطهره بماء قدسـه » [12] .

ويتبدى هنا سؤال ما الذى ينقص الزين ليكون المجذوب السالك « وهو الذى تحصـل له الجذبة ثم يسلك الطريق ويصـل الى المقصود بهما وهذا أحسن الكل » [13] .

هناك طريق طويل لابد أن يمر به الزين قبل أن يصبح المجذوب السالك . لابد له من صحوة وقيادة مرشد تؤدى به الى هذا الطريق .

الزين لم يذهب الى المسجـد بعد ، وليس فى

---

(١٢) المرجع نفسه .
(١٣) المرجع نفسه .

القصة اشارة الى أنه يصلى • انه يبدو كمن يعيش فى ملكوت الله متوحدا مع الطبيعة وقد سقطت عنه التكاليف الشرعية •

وهناك جانب آخر لصورة الزين المجذوب المنسلخ عن جماعته ، وهو جانب القيم على عالم القيم فى مجتمعه فيظهر وكأنه ضمير القرية الحى الذى لا يتوقف عن أداء أسمى واجباته الاجتماعية ولكن فى صورة غير الصورة التقليدية المعتادة للناس • فتتحرك صورة الزين فى محورين متوازيين :

محور ← المجذوب المنعزل عن واقع القرية

محور ← المتيقظ لاصلاح أخطاء القرية

يظهر فى المحور الأول فاقد الوعى بالمواقف الاجتماعية المعتادة كتعزية الناس فى جنائزهم أو التيقظ لمحاسبتهم على أخطائهم كدينمية الدفاع عن النفس للحفاظ على المكانة الاجتماعية وهو أيضا فاقد الوعى بالمواقف الدينية المتعارف عليها كالذهاب الى الصلاة فى المسجد •

أما المحور الثانى فهو الواعى بدوره فى القريـة كرسول للحب والرحمة .

كان الزين ذواقة للجمال لا يحب الا أروع فتيات البلد جمالا وأحسنهن أدبا وأحلاهن كلاما . ما آن يبدأ فى الحديث عن حبه لفتاة من فتيات القرية حتى تصبح الفتـاة حديث القرية كلها ولا تلبث أن تتزوج بأحـد الشـبان المرموقين ، « كان الحب يصيب قلبـه أول ما يصيب ثم ما يلبث أن ينتقل منه الى قلب غيره »(١٤).

لم يكن حب الزين للفتيات بأمر لا يقره عليـه المجتمع ، فلم يكن الزين ذا خطر ولم يكن صاحب نفس شريرة ولم يكن سيء السـلوك ، ان طاقة الحب فيه وقدرته عليه تجعله ينظر الى الفتاة « فيصيبه شيء لعله حب !! وينوء قلبه بهذا الحب ، فتحمله قدماه النحيلتان الى أركان البلد ، يجرى ها هنا ، وها هنا كأنه كلبـة فقدت جراءها ويلهج لسانه بذكر الفتـاة . ويصيح باسمها حيثما كان ، فلا تلبث الآذان أن ترهف وما تلبث

---

(١٤) المصدر نفسه . ص ٣١ .

العيون أن تنتبه وما تلبث يد فارس من بينهم أن تمتد فتأخذ يد الفتاة » (١٥) . قام الزين هنا بدور كبير فى هذا المجتمع المحافظ الذى لا فرصة فيه للفتيان فى لقاء الفتيات وأصبح للحب « سمسارا أو دلالا أو ساعى بريد » (١٦) ولقد عرفت الأمهات دوره هذا فأخذن يستخدمنه . كل أم تتمنى أن يقع اختيار قلب الزين على ابنتها وأن يخرج اسمها من فمه « تلك الفتاة تضمن زوجا فى خلال شهر أو شهرين » (١٧) .

لم يتوقف هذا الأمر عند النساء بل تعداه الى الرجال فمحجوب أحد رجال القرية المعدودين والمشهور بصلابته وصرامته فى حماية تقاليدها لا يغضب حين يسأله أن يزوجه ابنته ، بل يجيبه بجد وحزم كأنه يعنى ما يقول « البت أنا سضيتها لك . مدحين قدام الناس الحاضرين ديل . تعد تحش قمحك وتلم تمرك وتبيعه وتحضر القروش ديل . وتيجى نعقد لك » (١٨) .

---

(١٥) المصدر نفسه .
(١٦) المصدر نفسه .
(١٧) المصدر نفسه .
(١٨) المصدر نفسه . ص ٢٠ .

وطبيعى لم يكن محجوب يعنى كلمة مما يقول ولكنه كان يريد من الزين أن يلهج باسم ابنته حتى يتسامع بها شبان القرية الذين يثقون فى ذوقه وهو بهذا يضمن لابنته زوجا مناسبا .

موقف أهل القرية من علاقة الزين بناتهم يؤكد أنهم يرونه فى حالة من الغيبة لا يسىء الى أى بنت حين يتكلم عنها فلا خشية منه . انه يقترب فى ذلك من الشبلى حين دخل عليه الجنيد وعنده امرأته فأرادت أن تستتر « فقال لها الجنيد لا خير للشبلى عنك فاقعدى . فلم يزل يكلمه الجنيد حتى بكى الشبلى فلما أخذ الشبلى فى البكاء قال الجنيد لامرأته : استترى فقد أفاق الشبلى من غيبته » (١٩) والزين يبدو عند أهل قريته فى حالة محو ومن كان يغلب عليه المحو « فلا علم ولا عقل ولا فهم ولا حس » (٢٠) وحالة الغيبة والمحو

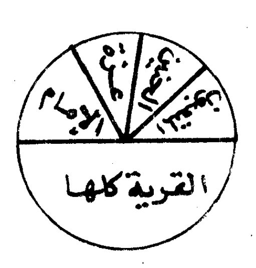
---

(١٩) **القشيرى ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن ابن عبد الملك ابن طلحة** . الرسالة القشيرية . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٢ . جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

(٢٠) المرجع نفسه . ص ٢٥٢ .

التى تصيب الصـوفى تكاد تكون غالبة على الزين فى علاقته بأهل قريته •

لا يعود الزين الى صحوه الا حين يلتقى بنوعيات خاصـة من البشر فعـالم الزين دائرة يتمركز فيهـا وتنقسم الى غيبة وصحو •



يصحو الزين مع أولئك المتعبين من أهل قريته فهو لا ينسى دوره معهم ورغبته الدائمـة والتلقائيـة فى مساعدتهم • وكان الزين يصحو أيضـا عندما يقـابل ثلاثة أشخاص •

هم الحنين ونعمة وامام مسجد القرية . وصحوته هذه تختلف عن صحوته مع المتعبين من اهل القرية .

فهو يلتقى بالحنين
ويلتقى بالامـــام
ويلتقى بنعمـــة

واللقاء مع هؤلاء الثلاثة له تأثير كبير على حـــركة الزين وتؤدى الى استجابة مختلفة منه . اذ أن اللقاء بأى منهم يتحول الى مؤثر والاستجابـــة تكون مختلفـــة تمـــاما .

المؤثـــر		الاستجابة
الامـــام	ـــــــــــــ	يتعكر مزاجه ويترك له الطريق .
الحنـــين	ـــــــــــــ	تنفرج نفســـه ويترك عبثه ويقبل عليـــه .
نعمـــة	ـــــــــــــ	يصمت ويترك العبث ويفر من بين يديهـــا .

عالم صحوالزين يكشف القرية كلها . فلقد كان الزين صـــداقات عديدة مع أشخاص تعدهم القرية من الشواذ والعجزة مثل عشمانة الطرشاء وموسى الأعرج وبخيت الذى ولد مشوها ليست له شـــفة عليا جنبـــه الأيسر مشلول .

كان الزين يحنو على هؤلاء القوم ولا يفقد صحوه حين يكون الأمر متعلقا بهم .

فهو اذا رأى، عشمانة الطرشاء قادمة من الحقـل وعلى رأسها حمل ثقيل من الحطب ، حمله عنها ، وهش لها ، وداعبها • كانت فتاة تخاف من كل أحد اذا صادفت امرأة أو رجـلا فى الطريـق ارتعبت وفزعت • كأنهم وحـوش مفترسـة ، ولكنهـا كانت تأنس للزين وتضحك له ضحكتها البكماء المحزنة التى تشبه صياح الدجـاج •

وموسى الذى لا يذكر النـاس اسـمه ولكنهم يسمونه الأعرج رجل طاعن فى السن يعانى فى مشيه • الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق • كان عبدا لرجل موسر وحين منحت الحكومة الرقيق حريتهم بقى مع مولاه الذى كان يبره ويقدم له احتياجاته وحين توفى هذا الرجل وآلت ثروته الى ابنه طرد موسى • ولقد أدركته الشيخوخة وهو معدم بلا أهل ولا أحد يعنيه أمره ، أخذ الزين بيد هـذا الرجل ، فبعد أن كان يأوى الى الخرابات فى الليل ويبحث عن القوت نهارا فى فجوات الحى بنى له الزين بيتا من جريد النخـل وأعطاه معزة تدر لبنا يأتيه فى الصباح ليسأله كيف بات

ليله ويأتيه بعد غروب الشمس مالئا جيوبه بالتمر وثوبه منتفخ بالطعام فيلقيه بين يديه وأحيانا يجيء ومعه أوقية شاى أو رطل سكر أو شيء من البن » (٢١) .

الزين فى حالة يقظته ممتد فى أعماق القرية يحمل عنها أعباء كان يجب أن تؤديها لهؤلاء الرجال .

وبين غيبة الزين وصحوته تقف القرية فى حيرة ازاء هذا التناقض الذى تعجز عن فهمه فتظنه تناقضا فهو فى عينها الدرويش الذاهل أو مطرطش أو فاسد لم يرب تربية حسنة . أما فى حالة صحوه فالناس أيضا يقفون منه متعجبين لا يدرون بم يفسرون طاقة الخير الضخمة التى يحملها الزين فى نفسه فيأخذون فى تفسيرها تفسيرا غيبيا لا عقلانيا لعله نبى الله ، لعله ملاك أنزله الله فى هيكل آدمى زرى ليذكر عباده « أن القلب الكبير قد يخفق حتى فى الصدر المجوف والسمت المضحك كصدر الزين وسمته » (٢٢) .

الزين محير للقرية لا تستطيع أن تجد له تفسيرا

(٢١) المصدر نفسه . ص ٣٦ — ٣٧ .
(٢٢) المصدر نفسه . ص ٣٧ .

فهو يصنع كل هـذا الخير وما يلبث أن يعود الى غيبته حين يكسر حدة احساسهم هـذا بندائه « يا أهـل الغريق .. يا ناس الحله أنا مكتول » (٢٣) فيعود موضوعا للتندر والسخرية .

التناقض فى حياة الزين يمثل جدلا لا يتوقف فهو أيضا يثير التناقض ودهشة أهل القرية بموقفه من رجلين أحدهما هو الحنين الرجل المبروك والآخر امام مسجد القريـة .

كان الزين يعود الى صحوه عندما يلتقى بالحنين فيترك عبثه وهـذره ويسرع اليه ويعانقـه لقد كانت بينهما علاقة متبادلة فالزين هو الوحيد الذى يأنس اليه الحنين فى البلدة يهش له حين يراه ويتحدث معه وكان اذا قابله فى الطريق عانقه وقبل رأسه وناداه بالمبروك .

لم يكن الحنين يأكل طعاما فى بيت أحد الا دار أهل الزين يسوقه الزين معه الى أمه ويأمرها بصـنع الغداء أو الشاى أو القهوة . ولكن من هو الحنين الذى

---

(٢٣) المصدر نفسه .

يعيد للزين صحوه حين يلتقى به ؟ رسمت القصة صورة
له كما يراها أهل القرية • كان رجلا صالحا منقطعا
للعبادة • يقيم فى البلدة ستة أشهر فى صلاة وصوم
ثم يحمل ابريقه ومصلاته ويضرب مصعدا فى الصحراء
ويغيب ستة أشهر ثم يعود ولا يدرى أحد أين
ذهب » (٢٤) •

لم تقدم فكرة الناس عنه شيئا غريبا على المجتمع
الاسلامى فهو من المتصوفة والكلمات التى وصف
بها تلتقى مع الأوصاف التى وصف بها أهل التصوف ،
فهم قوم « قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان
وهجروا الأخدان ، وساحوا فى البلاد ، وأجاعوا الأكباد
وأعروا الأجساد ولم يأخذوا من الدنيا الا ما لا يجوز
تركه من ستر عورة وسد جوعة فلخروجهم عن الأوطان
سموا سياحين » (٢٥) والرجل من المنقطعين للعبادة
يقيم فى البلدة ستة أشهر لا يصنع فيها شيئا غير الصلاة
والصيام ثم يغيب عن البلدة ستة أشهر لا يحمل غير

---

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٢٥) **البخارى الكلاباذى** . المرجع السابق ، ص ٥ ، ٦ .

أبريقه ومصلاته • انه واع بما يصنع فعودته الى البلدة انما هى حالة صحو يقدم فيه لأهل بلدته المثل الأعلى للتقى •

ولكن ماذا يصنع الحنين فى الستة أشــهر التى يغيبها بعيدا عن القرية فان أحدا لا يدرى ماذا يأكل ومــاذا يشرب ؟ فهو « لا يحمــل زادا فى أســفاره الطويلة » (٢٦) ، شأن الزاهدين « لا يملكه مع الله سبب » (٢٧) •

والصورة هنا تجعله من السالكين وان لم يظهــر واضحا هل هو ســالك مجذوب أم مجذوب سالك ؟

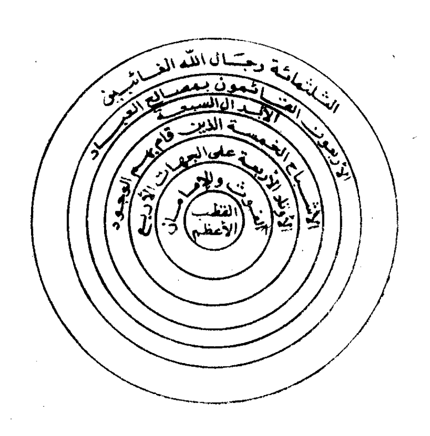
ورأى الناس يوضح أنه قطع شــوطا كبيرا من درجات المتصــوفة حتى وصــل الى أعلى درجــات الولايــة •

فالمتصوفة قد رسموا عالمــا باطنيا لهم يقابل العالم المرئى ، فلهم خلافة قائمة بأمور العالم ، وحديث الناس عنه يجعله يقف فى الدرجات العليا من هذه الحكومة •

---

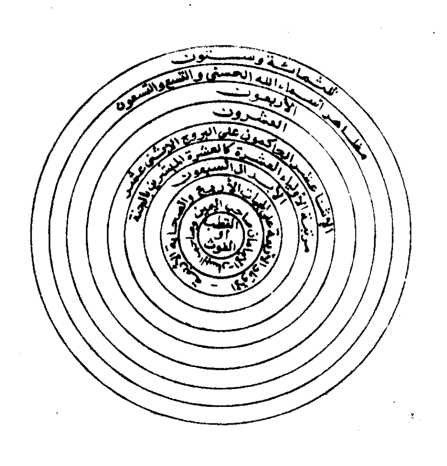
(٢٦) **الطيب صالح** . المصدر السابق • ص ٣٥ •
(٢٧) **البخارى الكلاباذى** . المرجع السابق • ص ٦٥ •

ويجمع المتصوفة أن القطب هو الواقف على قمتهم ولقد رسمت صورة متكاملة لهذه الحكومة ، وان كان هناك خلاف بين المتصوفة فى عدد هذا المجلس ودرجاته • وننقل صورة الحكومة فى الرسم (آ) من القيصرى [٢٩] والرسم (ب) من الآملى [٣٠] •



(٢٩) ختم الأولياء ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

(٣٠) المرجع نفسه ص ٤٩٥ .



وهـذا العـالم المحيط بفلك القطب لا يزيـد ولا ينقص واذا مات شخص من هؤلاء حل محله واحد من الدرجة التى تلى درجته •

وليس هـؤلاء كل أولياء الله فهنـاك المريدون والأمناء المسمون الملامتية والزهـاد العباد والعلماء من المؤمنين الكائنين فى كل زمان ومكان عددهم غير ثابت يزيدون وينقصـون وجميعهم داخلون فى حكم القطب•

وهناك أولياء لا يدخلون فى دائرة القطب منهم الانسان الكامل وهو « البالغ حد التكميل الكامل فى علوم الشريعة والطريقة والحقيقة لأنه وصل الى مقام وجب له تكميل الغير » (٣١) وتعادل مرتبة الأفراد « مرتبة القطب فى الخلافة هم الخارجون من حكمه . فانهم يأخذون من الله سبحانه ما يأخذون من المعانى والأسرار الالهية بخلاف الداخلين فى حكمه (القطب) فانهم لا يأخذون شيئا الا منه » (٣٢) .

وانه لمن الجدير بالذكر أن معظم الأفراد المتصلين بخلافة القطب الباطنية مرتبطون بمسميات كونية ، فالقطب هو مركز هذه الخلافة وقد يسمى غوثا وقد يصبح الغوث من الثلاثة التابعين له مباشرة ويكون فى هذه الحالة المغيث للخلق فى أحوالهم ، أما الامامان فأحدهما عن يمين الغوث ــ ونظره فى الملكوت والغيب ــ والآخر عن يساره ــ ونظره فى الملك والشهادة ــ .

---

(٣١) المرجع نفسه . ص ٥٠٥ .
(٣٢) المرجع نفسه . ص ٤٩٥ .

أما الأوتاد فهم على منازل الجهــات الأربــع من العالم • والبدل هو البديل عن القطب فى أحد الأقاليم السبعة : والنقيب هو المتحقق بالاسم الباطن • والاثنا عشر فهم الحاكمون على البروج الاثنى عشر وما يتعلق بها ويلزمها من حوادث الأكوان ، والتسعون هم مظاهر الأسماء الحسنى وهم بهذا مرتبطون ارتباطا مبــاشرا فالعالم لا يخلو منهم أبدا حتى نهايته ، فان الله اذا أراد خراب العالم يهلكهم ويكون القطب آخــر من يهلك وتقوم الساعة (٣٣) •

واذا كان الناس قد وضعوا الحنين فى مرتبة عليــا من مراتب التصــوف فأين تقع مرتبتــه فى الدائــرة الكونيــة •

يروى أهل القرية أن الحنين فى غيبته يجتمع برفقة من الأولياء السائحين الذين يتحكمون فى الكون ويقيمون شؤونه وهم يتناقلون قصصــا غريبــة عنه « يحلف أحدهم أنه رآه فى مروى فى وقت معين بينما يقسم آخر

(٣٣) المرجع نفسه •

أنه شاهده فى كرمه فى ذلك الوقت نفسه ، وبين البلدين مسيرة ستة أيام (٣٤) • هـذه الأحاديث توضح أنهم يضعونه فى مرتبة الأبدال وهم أصحـاب قدرة على التبدل « فلا يسافر أحد عن موضعه الا ويترك جسدا فى صورته بحيث لا يعرف أحد أنه فقد وذلك معنى البدل » (٣٥) •

وعلى هذا فلم يكن غريبا أن تذيع أم الزين أن ابنها ولى من أولياء الله لأن له علاقة بالحنين ، فهـذه العلاقة لها خصوصيتها التى تسترعى انتبـاه النـاس فلا يجدون لها تفسيرا ، فالزين يعود الى صحوه حين يلتقى به ، يضحكان ، ويتكلمان ساعات • وحين يحاول أهل البلد أن يعرفوا من الزين سر الصـداقة التى بينه وبين الحنـين فلا يزيد على قـوله « الحنين راجـل مبروك » (٣٦) •

وبذلك تأخـذ العلاقـة شكل سر من الأسرار

---

(٣٤) **الطيب صالح** . المصدر نفسه . ص ٣٥ .
(٣٥) **الحكيم الترمذى** . ص ٥٠٥ .
(٣٦) **الطيب صالح** . المصدر السابق . ص ٣٦ .

الكونية التى يضن الصوفية بالحديث عنها الى العامة فان أسرارهم بكر لم يفتضها وهم واهم (٣٧) .

فالزين يقف من الحنين موقف المريد من أستاذه الشيخ هذا الموقف لا يقفه الزين مع أحد من أهل القرية بل ان له موقفا آخر من أحد رجالاتها وهو امام مسجد القرية . وهو فى موقفه من الامام يقف منه على النقيض من موقفه من الحنين .

فالزين لم يستفز من انسان فى القرية مثلما كان يستفز من الامام الذى كان يقف مع الحنين فى كفة متقابلة فى ميزان الزين . يقف الحنين فى كفة بالايجاب بينما يقف الامام فى كفة أخرى بالسلب .

كان الحنين يمثل الحقيقة الصافية بينما كان الامام يمثل تزييف الشريعة فيتحول الى رمز للنفاق . والزين يعيش عالمه بين الحنين والامام فكانت قوة كونية تجذبه الى الحنين وتجذت الحنين اليه هذه

(٣٧) القشيرى . المرجع السابق . ص ٣٠٩ .

القوة الكونيـــة نفسها تطرده بعيدا عن الامـــام وتطرد الامام بعيدا عنه •

الحنين ← قوة جذب → الزين

الامام ← قوة طرد →

وكان يبدو أن الزين على حق فى موقفه فقد كانت هناك تقابلات كثيرة بين الحنين والامام •

يتبدى الزين فى علاقته بالامام فى صورة ربما يظن أنها تخالف طبيعته فحيـــاة الزين المملوءة حبا لم تسىء الى أحد ولم تعرف الكره باستثناء كرهه للامام • والطيب صالح حين يذكر أنه كان يكره الامام يضـــع العبارة مسبوقة بلفظ « لعل » « الامام كان الشخص الوحيد الذى يكرهه الزين » (٣٨) لمـــاذا يضـــع الطيب

(٣٨) **الطيب صالح** . المصدر نفسه . ص ١٠٠ .

صالح لفظ « لعل » بدلا من حذفها لتصبح « والامام كان الشخص الوحيد الذى يكرهه الزين » ؟ هل هو تخفيف من وضع لفظ الكره بجوار الزين ؟ وهل يخاف أن يحدث تناقض بين زينه الذى يبدو أنه أحبه حبا كبيرا وبين أن يضع بجواره لفظة الكره مقرا اياها بحسم الا أن كلمة « لعل » هذه لم يعد لها وجود عند النظر لعلاقة الزين بالامام فهو فعلا كان يكره الامام • تصرفاته تقول ذلك ويصبح ارتباط « لعل » « بالوحيد » محاولة من المؤلف ألا ينفى أنه ربما يكون هناك شخص أو أكثر يكرههم الزين ولابد أن تكون لهم علاقة عكسية بارتباطه الكونى •

كان الزين يعامل الامام بفظاظة « واذا قابله قادما من بعيد ترك له الطريق • ولقد كان مجرد وجوده فى مجلس يكفى لاثارة الزين فيسب ويصرخ ويتعكر مزاجه ويتحمل الامام فى وقار هيجان الزين » [39] ، فهو يعرف مشاعره نحوه ويحاول أن يدافع عن نفسه بادانة الزين بمعاملة الناس له على أنه شخص شاذ ،

---

(٣٩) المصدر نفسه •

وأنه لو ربى تربية حسنة لنشأ عاديا كبقية الناس [٤٠] .

ان موقف الامـام من الزين مبرر فهو استجابة طبيعية لموقف الزين منه فهو ربما كان الوحيد فى القرية الذى يواجه الامام بعدم الاكتراث . أما لمـاذا يقف الزين من الامام هذا الموقف ؟

يعبر الزين فى موقفـه من الامـام عن الوجدان الجماعى للقرية ازاء الامام غير أن القرية اظروف خاصة بها لا تعلن موقفها منه ، فهى تحتاج اليه . انه كما يقول أحد أبنـاء القرية المتمسكين بتقاليـدها « شر لابد منه » [٤١] . فهو عالمها والقائم على الشرع بها . قضى عشر سنوات فى الأزهر الشريف ثم عـاد ليصبح معـلم الصبيان وامام المسجد ، وخطيبه وقارىء القرآن ومأذون القريـة ليقوم بعقود الزواج ويبدو عليمـا ببواطن الأمور . كل هذا لا يكشف عن أسباب كراهية الزين له . فهناك أشياء تسبب هـذه الكراهية ، فمع أن الامام كان ممثلا للشرع لم يكن له من الشرع غير المعرفـة

(٤٠) المصدر نفسه . ص ١٠١ .
(٤١) المصدر نفسه . ص ١٠٠ .

الشكلية فعلاقته بأهل القرية تؤكد أنه كان يتاجر بهذا الشرع فقد كان الوحيد الذى لا يعمل عملا واضحا فى زعم أهل القرية ، لم يكن له حقل يزرعه ولا تجـارة يهتم بها كان يعيش على تعليم الصبيان ، له فى كل بيت ضريبة مفروضـة ، لم يكن يعنيه ما يعنى أهل القرية ، أوان زراعة القمح ، وسبل ريه وسـماده ، وقطعـه وحصاده ، لم يكن يهمه هل موسـم الذرة فى حقـل عبد الحفيظ نجح أم فسد ؟ وهل البطيخ فى حقل الريس كبر أم صغر ؟ كم سـعر الأردب فى السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لمـاذا تأخر لقاح النخل ؟ كان ينفر من هذه الأمور ويحتقرها بسبب جهله بها . أما هو فيبدو أنـه لم يكن يحبهم فهو ما ان يخطب الجمعـة حتى يستخدم فصاحته فى الانتقام منهم فيلهب ظهورهم فى خطبه ، ولا يفتأ يذكرهم بالموت والحساب والعقاب ، والجنة ، ومغضبة الله والتوبة ، كلام ينزل فى حلوقهم كالسم ، ما ان يخرج الرجل من المسجد بعد صـلاة الجمعة حتى يشعر بأن سير الحياة قد توقف لينظر الى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر فلا يحس بأى غبطة

فى نفسه . يحس أنها جميعا عرض زائل . وأن الحياة بما فيهـا من فرح وحزن ما هى الا جسر الى عـالم آخر (٤٢) . ومع كل هـذه التوجيهات فهو نفسه لم يكن مثلا للصـلاح والتقوى . كان اليد السفلى التى تأخذ منهم . يعيش حياته على عرقهم فهو يفطر فى شهر رمضان فى بيوت العقلاء منهم كل واحد يدعوه يوما ، ويعطونه جـلود الذبائح . واذا تزوج أحد أبنـائهم أو بناتهم أعطوه حقه نقدا ، ومعه رداء أو ثوب يجمع له مرتب شهرى من أهل الحى . كان يأخذ وهم يعطون، وسبب الأخذ غير مقنع ، والآخذ نفسه غير مقنع أيضا. ولقد وقف منه أهل القرية معسكرات واضحة المعالم : معسكر أغلبـه من الرجال الكبار العقلاء الذين كانوا يحضرون كل الصـلوات فى المسجد وهؤلاء يعاملونه معاملة ود يشوبه تحفظ . والمعسكر الثانى يتكون من سبعة رجال هم أصحاب النفوذ الفعلى والقائمون على الشئون الاجتماعيـة فى القرية وهـؤلاء لم يكونوا يصلون ولكن واحدا منهم يحضر الصلاة مرة فى الشهر

---

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦ – ٩٧ .

ويكون غرض الزيارة تفقد بناء المسجد واعطاء الامام مرتبه . وهؤلاء لم يكونوا يحترمون الامام ، يحبسون ألسنتهم عن ذمه ما استطاعوا ويقومون بالواجب والمجاملة . والمعسكر الثالث أغلبه من الشبان دون العشرين والمتعلمين والمتمردين والكسالى الذين يصعب عليهم الوضوء فى الفجر فى عز الشتاء ، فهم لا يحفلون برجل صناعته تذكير الناس بالموت ويعادونه معاداة سافرة .

يقف الزين وحده معسكرا قائما بذاته أمام الامام فهو لا يحفل برجل صناعته الأخذ واستخدام الشريعة وسيلة للكسب . الزين هنا يقف مع الحقيقة فى مواجهة النفاق ويقف مع الشريعة فى مواجهة تزييفها .

واذا كان الزين يقف ضد الامام فليس غريبا ألا يظهر فى القصة أى رباط يربط بين الحنين والامام . والرابطة الوحيدة التى ربطت بينهما هى حادثة حدثت للزين مع شاب من شبان القرية يسمى سيف الدين .

يعد سيف الدين الوجه المقابل للزين ، فكما كان

الزين ممثل الخير أو قوى النور فى حيـاة القرية كان سيف الدين ممثل الشر أو قوى الظلام فيها •

ولم تكن ثمـة عـلاقة شخصـية بينهما ولكن علاقة أكبر كانت تربطهما هى علاقة التضـاد • ولم يحدث أن تحرك الزين ضد سيف الدين قط وانما على العكس تحركت قوة الشر بادئة حتى تقضى على قوة الخير • وكان ذلك طبيعيا أن تبدأ قوى الظـلام فى الاعتداء على قوى النور فقد عقد حفل زواج أخت سيف الدين وجاء الزين كعادته فى مزحه وهذره الى هـذا الحفل • ولم يعجب سيف الدين تصرف الزين فضربه بفأس على رأسه •

وقد أصابته الضربة بجرح كبير يصل الى قريب من عينه اليمنى وصـدره ، وسرواله ملطخ بالدم • وأخذ الزين الى مستشفى مروى حيث ظل أسبوعين هناك •

عاد الزين من مروى ليلتقى بأصحابه وهم الرجال القائمون على الشـئون الاجتماعيـة للقريـة • وهم عبد الحفيظ والطاهر الرواسى وعبد الصـمد وحمد

ود الريس وأحمد اسماعيل وسعيد ، وعلى رأسهم محجوب كانوا بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين الا أحمد اسماعيل فقد كان فى العشرين من عمره لكنه بحكم مسئوليته وطريقة تفكيره واحد منهم

كان الزين يقضى معظم أوقاته مع هذه الشلة التى تكره الامام وتمثل علاقته بهم علاقة فريدة داخل القرية • كان يعلم قوة الخير فيهم فيستريح اليهم أما الشلة فكانت تعتبره احدى المسئوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم يحرصون على ابعاده عن المشاكل واذا وقع فى ورطة أخرجوه منها • كانوا يعلمون عنه أكثر مما تعلم أمه • يشملونه بعنايتهم وترعاه عيونهم من بعيد • يحبهم ويعرف من هم ويحبونه ولا يعرفون من هو ؟ حبهم له يمتزج فيه الشفقة بحنو غامض •

جلس الزين يحدثهم حديثه الهزلى عن أيامه فى مستشفى مروى وبينما يبتسم لهم ويبتسمون له ، اتسعت ابتسامة الزين وهو يحادثهم ثم فتح فمه ليتكلم فانعكس شيء من ضوء المصباح على أسنانه • وفجأة قفز الزين واقفا كأن عقربا لدغته وقفز أصحابه جميعا

ليوقفوه ولكنه كان أسرع منهم ، ففى لمح البصر كان الزين قد أمسك بالرجل ورفعه فى الهواء بعنف ثم رماه على الأرض ثم شده من رقبته ، كان هـذا الشخص هو سيف الدين نفسه .

انكب الجميع على الزين محاولين ايقافه . أمسك أحدهم بذراعه اليمنى والآخر باليسرى وأمسك به ثالث من وسطه ، ورابع من قدميه ، وعضه خامس فى ظهره أما سادسهم محجوب فقد أخذ يشتم بعد أن أعيته الحيلة ، فان القوة الكونية الخارقة التى يحويها جسد الزين جعلتهم جميعا عجزة فقد كان الزين أقوى منهم مجتمعين .

وفى وسط الضوضاء سمعوا شخيرا يصدر من حلق سيف الدين . ورأوه يضرب فى الهواء برجليه الطويلتين فصاح أحدهم مات .. كتله (٤٣) .

لقد تحرك الزين الغائب الضاحك ليقوم بعمل خطير ليستخدم القوة الكونية ليقطع جذوة الشر فى

---

(٤٣) المصدر نفسه . ص ٢٧ .

القرية ويقضى على قوى الظـلام فيها ، فى هذه اللحظة وهى لحظة حاسمة ارتفع صـوت الحنين فجـأة هادئا وقـورا « فـوق الضجـة : الزين المبروك الله يرضى عليك » (٤٤) • وهنا كان لابد أن تنفك قبضـة الزين عن سيف الدين وقد وقع على الأرض هامدا ساكنا •

لم يعد الزين الى صحوه فهو لم يكن غائبا • لقد كانت لحظة امساكه بسيف هى لحظـة وعيه الكامل بالوجود • وقام صـوت الحنين بعمليـة سيطرة على هذا الصحو • لم يستطع أن يوقف الزين أحد ولكن صوت الحنين أوقفه • لقد كان هـذا الصوت مفاجأة للجميع كما كان سكوت الزين مفاجأة أيضـا ، فكأن حائطا أمامهم كانوا يدفعونه انهد فجـأة ، ولكنهم بعد برهة قصيرة تنبهوا الى سيف الدين الفاقد الوعى ثم انكبوا عليه جميعا يحاولون أن يعيدوه للحياة وللوعى وبعدها تذكروا الزين أيضا فرأوه جالسا على مؤخرته ويداه بين ركبتيه بكل الأدب جلسة التلميذ أمام أستاذه الشيخ ، أو جلسة الابن البار خجلا من والده بينمـا

---

(٤٤) المصدر نفسه • ص ٦٥ •

الحنين يضـع يده على كتف الزين فى حنان بالغ هو حنان الأستاذ الشيخ أو الأب • كان يتحدث اليه بصوت حازم لكنه ملىء بالحب : الزين المبروك • ليه عملت كـده » •

هذه اللحظة كانت ضرورية فى حياة الزين ليقوم الحنين بدوره معلما له • فان الزين المجذوب غير السالك والذى امتلك طاقات كونية ضخمة كان لابد أن يسيطر على هـذه الطاقات ويوجهها • ولم يكن ليقوم بهـذا العمل غير الشيخ نفسه • ان أصحاب الطريق الصوفى يؤمنون أن المريد لا يصل الى الدرجات العليـا دون شيخ فمشايخ هذه الطريقة هم أطبـاء القلوب ، فاذا ما كان الطبيب جاهلا بعلة مريضـه ، فانه يهلك المريض بمعالجته اذ أنه لا يعرف موطن دائه كما أنه لا يعرف مواطن الخطر فيه فيجعـل الغـذاء والشراب ضـدا لعلته • والشيخ لو علم أن المريد سيرتد يوما عن هذه الطريقة لا يبدأ معه بشىء ، وان تبين له أنه قد يثبت

تعهده ، وان تحقق لديه أنه سيصل ، يقوم بتربيته[٤٥].

وضع الصوفية سلسلة لهذا الطريق تنتهى بالنبى صلى الله عليه وسلم [٤٦] . وهذه الصورة من مشايخ الطريق تفسر العلاقة بين الزين والحنين .

وكان دور الحنين هو آن يعيده من جديد انسانا مسئولا وأن يقدمه للمجتمع كله وأن يعيد هـذه القوة الى مكانها .

ففى الوقت الذى كان الزين قد ملأ حيـاة أمه وحياة القرية تكون السعادة اينما كان ، فكان يبدو وكأنه روح « قلق ليس له مستقر فحيثما آقيم عرس تجـد الزين لا يحبسه برد ولا عاصفة تهب بالليـل ولا النيل الطامى فى موسم فيضانه تلتقط أذنه بحساسية نادرة زغاريد النساء على بعد أميال فيضـع ثوبه على كتفه يهرول كأن شيئا يجذبه الى مصدر الصوت » [٤٧]

AL-Hujwiri Kashf al-Mahjoub. Trans. by R.A. Nickolson. Leiden Brill, 1971 P. 55.

(٤٦) **عبد القادر الجيلانى** . فتوح الغيب . القاهرة : أحمـد **البابى الحلبى** ، سنة ١٣٠٤ ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٤٧) **الطيب صالح** . المصدر نفسه . ص ٥٩ .

حتى أصبح من يشاهد الزين يعلم أن هناك حفل عرس فى طرف الحي وحين يكون فى العرس ، فان الزين يقفز ويستقر فى حلقة الرقص ويثور المكان فجأة وقد نفث فيه الزين حياة جديدة « أما الناس فما ان يروا الزين قادما من بعيد حتى يرحبوا به » « ابشر • ابشر • حبابك عشرة » (٤٨) •

يقف فى الوجه المقابل سيف الدين • فهو عاق لوالديه يصنع ما تسميه القرية بالموبقات وحينما يكون هناك موقف اجتماعي سوى يكون سيف الدين عامل قلق وحزن • أينما يحل يحل الشر والفساد •

كان سيف الدين ابنا لرجل بدوى موسر يعمل صائغا جمع ثروة فى أقل من عشرين عاما من عرق جبينه بعضها أراض وضياع وبعضها تجارة منتشرة على طول النيل وبعضها ذهب تلبسه زوجته وبناته فى شكل حلى يملأ رقابهن وأيديهن وكان سيف الدين ولدا بين خمس بنات • يدلله الجميع فكان أن فسد • مات والده وهو

---

(٤٨) المصدر نفسه • ص ٦٠ •

غير راض عنه . سبب له هـذا الولد تعاسة كبرى ، انفق عليه مالا كثيرا ليتعلم ففشل أنشأ له متجرا فأفلس فى شهر ثم ألحقه بورشــة ليتعلم الصناعة فهرب ، ثم نجح فى تعيينه موظفا صغيرا فى الحكومة فاذا بالأنباء تترى لوالده أن ابنه يبيت ليله كله فى خمارة وأنه لايذهب الى عمله غير مرة أو مرتين فى الأســبوع وأنه مهــدد بالفصل ، فعاد به الى القرية وقد خاب أمله فيه وأقسم ليسجننه فى الحقل ليعمل كالعبد الرقيق . ومضى عام وهو يقوم بهذا العمل دون أن يتوقف عن شروره التى أخذت تزداد يوما عن يوم ، فهو يعرف أماكن الخمر ويصــادق الجوارى اللاتى يصنعنها . كانت بيوتهن المصنوعة من القش على حافة الصحراء مكانا لطــلاب المتعة وكان أهل القرية يسمونها الواحة وكان ســيف يعرف الطريق اليها جيدا .

عاد سيف ليلة الى أبيه وهو على سجادته بعد صلاة العشاء تفوح منه رائحــة الخمر ليبلغ أباه أنه يحب السمارة احدى بنات الواحة . ثار الأب على ابنه وضربه وحلف ألا يبيت فى البيت . سبب تصرفه ألمــا كبيرا

للأب حتى انه عاش بقية حياته مثل رجل به عاهة ، كان الألم يحز فى قلبه ، ووجهه نحيل معروق كوجوه المرضى بالسل •

كان يقول ان ابنه مات وكان أحيانا اذا خانه لسانه وذكر ابنه ، يذكره كأنه مات بالفعل [٤٩] وعاش الولد بعد ذلك حياة ضياع مع العاهرات ، يضع نفسه مواضع التهم حتى اتهم بقتل رجل فى بور سودان وكاد يشنق لولا أنهم وجدوا القاتل • ومات الرجل كما يموت الطيبون فى اعتقاد المسلمين فى شهر رمضان وبالذات الثلث الأخير منه • مات على مصلاته بعد أن صلى التراويح دون أن يكتب وصية يحرمه فيها من الميراث •

وقبل أن تنتهى أيام الحداد على الرجل دخل عليهم سيف الدين دون متاع ، كان أشعث أغبر لم يسلم على أحد وتجنبته العيون ، ثم أخذ يقوم بدوره المعتاد فى تبديد ثروة أبيه • وطرد موسى الأعرج الذى كان أبوه

---

(٤٩) المصدر نفسه . ص ٧٥ .

يقوم بأمره ، وتلقفه الزين وكأنما كان على الزين أن يعيد بناء ما يهدمه سيف فى مجتمعهم •

عاش سيف حياة مستهترة يقضى شهرا فى الخرطوم وشهرا فى القاهرة وشهرا فى أسمرة ، ولا يجىء البلد الا ليبيع أرضـا أو يتخلص من ثمرتجد البلدة كلهـا سيف الدين نوعا من الناس غريبا على حياتهم ، كانت خطواته فسقا وفجورا ، لقد فقد ثقة الناس على عكس الزين ، فبينما كانت البيوت جميعها مفتوحة له كانت البيوت كلها مقفولة أمام سيف الدين حتى بيوت أقرب الناس اليه لا يأمنونه على بيوتهم مخافة أن يفسـد بناتهم •

ضج الناس من سيف الدين منذ البداية فالواحة التى كان يلجأ اليها قد « ضاق بها أهل البلد فأحرقوها ولكنها عادت الى الحياة مثل نبـات الحلفـا لا يموت وطردوا سكانهـا وعزبوهم بشتى السبل ، لكنهم لم يلبثوا أن تجمعوا من جديد ، كالذباب الذى يحط على بقرة ميتة » (٥٠) • وفى أحدى زياراته للبلد وجد عرس أخته

(٥٠) المصدر نفسه • ص ٧٤ •

والزين يملأ الفرح حياة كعادته ، فتصوره على ما يتصور به نفسه فضربه بفأسه • ولم يتوقف الأمر عند هــذا الحد ، تشاجر مع العريس حتى كاد أن يغير رأيه لولا تدخل العقلاء من أهل البلدة • وفى الأسبوع الأخير من حفل الزواج دعا سيف مجموعة من أصــدقاء لهوه فانهمروا على الدار « عشرات من الناس الغرباء الذين لم يرهم أحد من قبل نســاء ماجنات ورجــال زائغو النظرات ، وصعــاليك ، وسفهــاء ، جاءوا من حيث لا يدرى أحد » (٥١) وكان لابد أن تصنع البلدة شيئا ، لقد وصل الأمر الى حد لايمكن السكوت عليه فتقدم « نحو من ثلاثين رجلا فى أيديهم عصى غليظة وفئوس • أغلقوا الأبواب عليهم وأشبعوهم ضربا وأكثر من ضربوا منهم سيف الدين ، ثم ألقوا بهم فى الطريق »(٥٢) كل هذا البلاء يحدث فى القرية والزين فى المستشفى •

وعاد الزين من المستشفى ليقوم بعمل فى استئصال شــأفة هــذا الشر • ان الزين وهو يقف فى موقع

(٥١) المصدر نفسه . ص ٧٨ .
(٥٢) المصدر نفسه .

الخير كان عليه أن يقضى على الشر المتمثل فى سيف • هذا الشر الذى عجزت القرية عن أن توقفه أو تحده • وحين رآه تحرك نحوه بهذه الحركة الكونية التى كادت أن تقتله ان لم تكن قد قتلته فعلا ، العمل عنيف مطابق لشخصية الزين • فالحب الكبير يصحبه فعل كبير ، وتحرك هذا الفعل تجاه سيف • هذا التحرك يمثل يقظة الزين ليكون حامى القرية من هذه الشرور فالرجل الذى ملأها أفراحا كان عليه أن يعيد قريته مرة أخرى الى أفراحها بأن ينهى الشر أو بمعنى أصح أن ينهى الشخص الذى ملأ قريته تعاسة وظلاما •

وتتم المواجهة ليقف

سيف صاحب التجربة ← يواجه ← الزين البكر النقى

ثم يتغاير الموقف ليقف

الزين البكر النقى ← يواجه ← سيف صاحب التجربة

أى :

التجربة ← تواجه ← البكارة

السكارة ← تواجه ← التجربة

وصورتها الحقيقية

الشر ← يواجه ← الخير

و

الخير ← يواجه ← الشر

وكلاهما عنيف .

وصل الحنين فى اللحظة الحرجة ، لحظة المواجهة، ليقدم خبرة الصوفى الى تلميذه ، اذا كنت تحب العالم فأصلحه بالحب أيضا .

عادت للزين صحوته وعليه أن يستخدم القوة الكونية التى منحت له بطريقة جديدة . لقد عبر الزين المرحلة الأولى مرحلة المجذوب غير السالك الى مرحلة المجذوب السالك الذى يتحمل مشاكل البشر ويقوم بحلها .

كيف يحلها ؟ هنا يكون دور الحنين . لذا ليس مصادفة أن يأتى فى هذه اللحظة . ويبدو فى القصة

أن حضوره أيضا لم يكن مصادفة ، وانما تم بناء على ترتيب كونى له دور واضح ليوقف الزين من قتل سيف ويعلمه كيف تتم مواجهة الشر ويقدمه الى مجتمعه .

أخذ الحنين الزين وكلمه فى صوت حازم ملىء بالحب أيضا : « الزين المبروك . ليه عملت كده » (٥٣) كان الحنين يقدمه لمجتمعه تقديما كونيا فهو الرجل البالغ الذى مر بمرحلة العبور . أخذ الحنين يمزح مع الزين ويسأله عما صنع لأخت سيف الدين يوم عرسها ، رد الزين « أخته كانت دايرانى أنا مشوا عرسوها للرجل الباطل داك » (٥٤) ضحك أحمد اسماعيل أحد الرجال الستة الذين حضروا الموقف على الرغم منه . لقد كانت الضحكة لا تخلو من عبث وسخرية بالزين ، لكن الحنين تجاهل ضحكته وقال فى صوت أكثر رقة وحنانا : « كل البنات دايراتك يالمبروك . باكر تعرس أحسن بت فى البلد » (٥٥) وطلب الحنين من الزين أن

---

(٥٣) المصدر نفسه . ص ٦٥ .

(٥٤) المصدر نفسه . ص ٦٦ .

(٥٥) المصدر نفسه . ص ٦٦ — ٦٧ .

يقوم ليسلم على سيف ، فقام دون تردد واعتذر له كما اعتذر سيف الدين للزين وقام سيف وقبل رأس الزين ثم أمسك بيد الحنين وقبلها وأمســك كل واحد من الرجال الستة بيد الحنين فى صمت وقبلها والحنين يقول بصوته الرقيق الوديع : « ربنا يبارك فيكم • ربنــا يجعل البركة فيكم » (٥٦) ثم وقف وأمسك ابريقه فى يده فسارع محجوب يستضيفه لكن الحنين رفض بلطف وقال وهو يمسك بيده الأخرى كتف الزين وغابا معا فى الظلام ، فالزين هو الرجل المختار • لقد كانت هــذه الليلة تعنى نهاية أعمال سيف الدين كما أنها كانت تعنى البداية للزين •

لقد أنهت شرور سيف الدين تماما بفعل كونى قام بدوره بأسرع مما تصــورت القرية التى عجزت بكل امكانياتها عن أن توقف شروره • وبطريقة أكثر حبــا وخبرة بالحب وأفاعيله مما فعل الزين •

بينما كانت بالنسبة للزين بدايــة جديدة بدايــة لـــا بعد العبور •

---

(٥٦) المصدر نفسه • ص ٦٨ •

لقد عبر الزين مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الرجولة فى نظر مجتمعه كما عبر مرحلة المجذوب غير السالك الى مرحلة المجذوب السالك فى عرف الصوفية. وقدم الحنين الزين لمجتمعه بصورة المبروك وقرنه بالمعجزة التى تحققت بعودة الحياة الى سيف الدين أو على الأقل ايقاف عملية مقتله . فانه حين أمسك الزين به وضيق قبضته على خناقه لم يستطع الرجال أن يوقفوا الزين وصدرت صرخة من أحدهم « مات ... كتله » (٥٧) ، يجزم بعضهم أن سيف الدين مات بالفعل ووقع جثة هامدة . وسيف الدين نفسه يؤكد بعد ذلك هذا الزعم فيذكر أنه مات بالفعل . لقد كان قدوم الحنين يمثل معجزة فهو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتحكم فى فعل الزين ويوقف ما يمكن أن تسميه القرية بقوانين الظاهر جريمة قتل هى فى عرف الزين تخليص القرية من قوى الشر .

ولقد حضر الحنين ليقوم بثلاثة أعمال فى وقت واحد

---

(٥٧) المصدر نفسه . ص ٦٥ .

أن يوقف الجريمة ويعلم الزين ضبط الفعل ويحوله الى المجذوب السالك ويقدمه الى مجتمعه .

لم يكن الحنين وهو يقدم الزين لمجتمعه جديدا فى هذا الفعل فان هناك نظاما عاما يكاد يكون شاملا وهو دور المرشد فى تقديم صاحب القوة الكونية . ظهر هـذا فى حياة معظم الأنبياء وكثير من القديسين والأولياء .

عندما بلغ موسى عليه السلام أشده منحه الله حكما وعلما ، فهما منحة كونية لا دخل لبشرى فيها ، كما منحه قوة كونية تفوق قوة أى بشر ، كانت سببا فى أن يقتل مصريا دون أن يقصد « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هـذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هـذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » (٥٨) . يعترف موسى عليه السلام بأن قتله للرجل كان عملا من أعمال

(٥٨) ١٥ ك القصص ٢٨ .

الشيطان ، أى أن القوة الكونية استغلت فى غير موضعها وهذا ما أدى به الى أن يطلب الغفران من هذا الصنيع ، ثم يأخذ فى الهرب ويذهب الى مدين وهناك يلتقى برجل خبير بالله • تذكر بعض المصادر أنه نبى الله شعيب عليه السلام • وقد أقام عنده عشر سنين (٥٩) •

كانت هذه السنوات فترة تعلم بالنسبة لموسى حتى يصبح مؤهلا للقيام بدعوته بعد ذلك • ولقد بدأ الدعوة بعد تركه شعيبا • لقد رفعت له نار فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله فلما رآها نورا يمتد من السماء الى شجرة عظيمة من العوسج » (٦٠) •

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون • فلما آتاها

---

(٥٩) ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسين على بن أبى الكرم محمد ابن محمد ابن عبد الكريى ابن عبد الواحد الشيبانى • الكامل فى التاريخ • بيروت • دار صادر ، ١٩٦٥ جـ ١ ، ص ١٧٧ •

(٦٠) المرجع نفسه • ص ١٧٨ •

نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنـا الله رب العالمين »(٦١) .

أدى يحيى عليه السلام دورا مع السيد المسيح يقارب دور شعيب اذ قام بتقديمه الى الناس . ويذكر أنه بينما كان يحيى يعمد الناس كان اليهود يفكرون فى قلوبهم أنه ربما كان المسيح « أجاب يوحنا الجميـع قائلا أنا أعمدكم بماء ولكن يأتى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحل سيور حذائه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع القمح الى مخزنه وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم » (٦٢) .

لم يتوقف الأمر بيحيى ليبشر بالمسيح وانما قدمه على نفسه على مرأى من الملأ الذين كان يعمدهم ، فلقد جاء المسيح ليتعمد منه « ولكن يوحنا منعه قائلا أنـا محتاج أن أتعمد منك وأنت تأتى الى ، فأجاب يسوع

---

(٦١) ٢٩ ـ ٣٠ ك القصص ٢٨ .

(٦٢) انجيل لوقا الاصحاح الثالث ١٦ ـ ١٩ .

وقال له اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر حينئذ سمح له » (٦٣) .

وبعد أن عمده يحيى « اذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه وصوت من السموات قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » (٦٤) .

لم يتوقف الأمر عند تعريف يحيى للمسيح بنفسه وانما اكتملت عملية التعرف بذلك الصوت الالهى .

وحين توفى يحيى انصرف الى الجليل وترك الناصرة يدعو الناس الى الايمان .

وسمع محمد صلى الله عليه وسلم « هذا الصوت من جبريل عليه السلام اذ قال له : « يا محمد أنت رسول الله » (٦٥) لقد كانت تجربة محمد (صلعم)

---

(٦٣) انجيل متى الاصحاح الثالث ١٤ ـ ١٥ .

(٦٤) انجيل متى الاصحاح الثالث ١٦ ـ ١٧ .

(٦٥) ابن الأثير . المرجع السابق . جـ ٢ ص ٤٨ . وانظر ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك السيرة النبوية . تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرءوف سعد . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨ . جـ ١ ص ٢٢٢ .

وتجربة أمته كلها بسيطة فى علاقتها بالوحى الالهى لذا كان لابد لمحمد من يقين يأتيه من خارج الدائرة الكونية ، يأتيه من بشر . ولقد قام بهذا الدور ورقة بن نوفل فقد ذهب الى النبى (صلعم) ومعه خديجة رضى الله عنها زوجه وبعد أن أخبره النبى بخبره عرفه بما رأى وسمع « فقال هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران » (٦٦) .

وعرف محمد (صلعم) نفسه من ورقة بن نوفل فقد أدرك منه معنى هذا الوحى وأنه النبى المنتظر والحوار الذى دار بينهما على قصره يحوى نبوءة بمستقبل الرسول والرسالة ولقد روى عن النبى (صلعم) أن ورقة قال : « ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك . قلت أمخرجى هم ؟ قال : نعم ، انه لم يجىء أحد بمثل ما جئت به الا عودى ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا » (٦٧) .

---

(٦٦) ابن الأثير . المرجع السابق . ص ٤٩ .
(٦٧) المرجع نفسه .

وبذلك يكون دور كل من شعيب ويحيى وورقة دور المقدم لهؤلاء الأنبياء •

ولقد حدث كثيرا فى عالم التصوف أن قام الشيخ بتقديم تلميذه الى الناس • ولقد ذكر الطيب صالح موقفا من هذه المواقف بين حسن بن عيسى بن ضو البيت والشيخ نصر الله فى قصة مريود •

وحسن هذا والد الطاهر ود الرواس أحد أصدقاء الزين اختلفت القرية فى حقيقة نسبه وقيل انه عبد الا أن القرية تجمع على أنه كان وليا من أولياء الله الصالحين •

ذكروا أن أول عهده بمصاحبة الشيخ نصر الله ود حبيب كان وهو فتى يافع فوق الخامسة عشرة ودون العشرين • ربما كان يضرب بعيدا فى الخلاء ليتقنت ويتعبد ، الله وحده يعلم ، لأنه كان غير واضح فى البلد، كأنه ليس موجودا فيها بالمرة وذات يوم والقوم فى حلقة الشيخ نصر الله ود حبيب بعد صلاة الفجر وكانت تلك من عوائده ، بعد أن يفرغ من صلاة الفجر والعشاء ، يمكث مقدار ساعة يرشد الناس ، ويسألونه ويجيبهم

قالوا انه فجأة صمت مدة وتغير وجهه ثم صاح بأعلى صوته : « الينا يا بلال ، الينا يا بلال » لم يفهم القوم ما يريد الشيخ وفجـأة قال أحدهم كأنما نزل عليـه وحى : « الشيخ يقصد حسن » وحاول الرجل أن يصف للناس حسن حتى انجلت لهم الحقيقة وصاحوا جميعا « حسن ها الله ها الله ... العبد حينئذ خاطبهم الشيخ نصر الله وهو فى ما يشبه الغيبة » :

بلال ليس عبدا لأحد . بلال عبد الله .

والله لو علمتم من أمره ما أعلم لانصدعت قلوبكم ولأصابكم الجزع والبلبلة . انه رأى وسمع ووصـل الى درجات تتقطع دونها القلوب حسرة . والله ان بلالا لو سـأل الله لأبره ولو طلب من الحق جل وعـلا أن يخسف بكم الأرض لفعل .

قال الشيخ كلامه هـذا بصـوت أصاب سامعه بالهلع ثم عاد ينادى من جديد بلال . ويقسم الناس أن الشيخ نصر ود حبيب ما ان فرغ من ندائه حتى سمعوا صوتا يصيح عند باب المسجد :

« لبيك لبيك » . ودخل حسن الذى سمى منذ ذلك اليوم ببلال وعليه غبار سفر بعيد حول رقبتــه مسبحة طويلة من اللالوب وفى يده ركوة جلد فانكب على قدمى الشيخ يقبلهما وهو يردد باكيا لبيك لبيك . انهضه الشيخ وعانقه وقبله على خديه وبين عينيه وقال له وعيناه تدمعان :

لمــاذا يا أخى تبعد عنا هــذا البعاد ؟ أما كفاك وكفانى ؟ ترفق بنفسك يا حبيبى فانك قد تبوأت رتبة قل من وصل اليها من المحبين الخاشعين ، وانني أركض فلا أكاد ألحق بغبارك » [٦٨] .

وبكى بلال حتى كادت روحه تزهق وهو يردد :

« يا سيدى لا تقل هــذا الكلام أنت القطب أنت صاحب الزمان وأنا عبدك ومملوكك » [٦٩] . لم يكن ذهاب الحنين مع الزين الى بيته عملية مجاملة من الشيخ الأستاذ وانما كان ضرورة فبعد حركة الزين العنيفة

---

(٦٨) **الطيب صالح** . مريود . بيروت : دار العودة ، ١٩٧٨ ص ٥٨ – ٦١ .

(٦٩) المصدر نفسه . ص ٦١ .

مع سيف كان لابد من خلوة يخلو فيها الشيخ مع تلميذه ماذا يمكن أن يقول الشيخ للتلميذ أو التلميذ للشيخ • فلاشك أن هناك أسرارا بين الشيخ والمريد لا يتحادثان بها امام الناس • وهـذا الحديث فى غاية الأهميـة بالنسبة لمستقبل المريد المجذوب غير السالك لتكتمل له صورة المجذوب السالك • والقصة لم تكشف عن هذا الحديث أو أى حديث تم فى خلوة بين الحنين والزين اذ لم يبح أحد به • غير أن حديثا تم بين بلال والشيخ نصر الله فى قصة مريود يمكن أن يقترب مما كان يدور بين الحنين الزين فكان الشيخ يقول : يا بلال أنت عبد الله كما أنا عبد الله نحن أخوة فى شأن الله • أنـا وأنت مثل ذرات الغبار فى ملكوت الله عز وجل ، ويوم لا يجزى والد عن ولد يمكن أن ترجح كفتك كفتى فى ميزان الحق جل جلاله • كفتى أنا أرجح من كفتك فى موازين أهل الدنيا ولكن كفتك يا بلال سوف ترجح كفتى فى ميزان العدل • أنا أجرى جرى الابل العطاش يا بـلال لكى أحظى بقطرة من كأس الحضرة ، وأنت شربت الى أن ارتويت يا بلال ، أنت سمعت ورأيت •

أنت عبرت وعديت ولما ناداك الصوت قلت نعم • قلت نعم » (٧٠) •

ولقد قدم الحنين الزين بكلمة وبفعل فلم يناده الا بالمبروك « الزين المبروك » (٧١) و « الزين المبروك ليه عملت كده » (٧٢) • أردف العبارة الأولى بدعوة « الله يرضى عليك » وفى العبارة الثانية بسؤال يستنكر فيه حركته للقضاء على الشر بهذه الطريقة فهو استنكار الشيخ من فعل المريد • وحين قال محجوب للزين بصوت فيه رنة احتقار « مين البتعرس البهيم دا ؟ » (٧٣) هنا أصابت الغيرة الحنين على تلميذه فنظر الى محجوب نظرة صارمة ارتعدت لها فرائصه حتى أنه بتلقائية صحح نفسه ليسمى الزين بالمبروك « الزين موبهيم الزين مبروك » ثم تركهم الحنين وهو يمسك بيد الزين مقررا « أن عشاءه الليلة فى بيت المبروك » (٧٤) •

---

(٧٠) المصدر نفسه • ص ٤٧ •
(٧١) الطيب صالح • عرس الزين • ص ٦٥ •
(٧٢) المصدر نفسه •
(٧٣) المصدر نفسه • ص ٦٧ •
(٧٤) المصدر نفسه • ص ٦٨ •

أسرار لم يفتضها وهم واهم تركت الرجال الستة الذين شهدوا الحادث فى حالة ذهول وأخذ بعضهم ينظر الى بعض وهزوا رءوسهم فيبدو أن كلمة المبروك لم تصب يقينا فى قلوبهم ازاء وضع الزين الكونى فكان لابد أن تتبع بفعل يؤكد كلمة الحنين : أن الزين « مبروك » ، فان الحنين ما ان دعا دعوته « ربنا يبارك فيكم • ربنا يطرح البركة فيكم ، فكأنما قوى خارقة قالت بصوت واحد آمين » (٧٥) وأخذت المعجزات تتوالى عليهم وعلى البلدة •

كان هذا الفعل كلمة السماء بأن الزين هو رجل القرية « المبروك » من أجله حدثت المعجزة •

مات الحنين بعد هذه الحادثة بقليل ، أى بعد أن أدى دوره وقام بمهمته وأخذت البركة تعم القرية كلها•

بدأت المعجزة بتغير سيف لقد تاب توبة نصوحا بعد هذا الحادث وكأنه ولد من جديد • لقد ذهب من صباحه الى آمه وقبل رأسها وبكى طويلا بين يديها

---

(٧٥) المصدر نفسه • ص ٨١ •

وجمع أعمامه وأخواله وتاب واستغفر أمامهم • وأكد هذه التوبة بأن أخرج ما تبقى من ثروة أبيه من ذمته وجعل عمه الأكبر وصيا عليها حتى يصير صالحا لمباشرة مسئوليته • ثم أخذ يؤم المسـجد للصـلاة • وذهب الى موسى الأعرج وطلب صفحه ثم عزم على أداء فريضة الحج • واكتملت صورة الرجل الاجتماعية بزواجه من احدى بنات عمه • لقد كان سيف وعودته الى حظيرة المجتمع هو الدرس الكبير الذى لقنه الحنين للزين • لقد قضى الحنين على الشر فى القرية كلها باعادة سيف الى حظيرة المجتمع • صحيح أن سيف لم يتجه نحو طريق الحنين الطريق الروحى وانما اتجه الى الامام فلم يكن يعنى الحنين أى طريق يسلك بقدر ما كان يعنيه عودة سيف الى الجماعة ، وما كان لسيف أن يتجه الى الطريق الروحى •

وعدم قدرة سيف على رؤية الطريق الروحى جعلته يبرز فى قصـة بندر شاه للطيب صالح ــ وهى تمثل مرحلة زمنية تالية لمرحلة عرس الزين ــ وقد ترك الامام واتجه فيما يبدو السياسـة فهو على وشك أن يعمل

نائبا فى البرلمـان وأصبح رجلا فى الجنـة ورجلا فى النار (٧٦) • ولكنه لم يعد الى طريقه القديم لقد أصبح فردا فى المجتمع كأى فرد عادى •

أما الرجال السبعة الباقون الذين شهدوا الحادث ودعا لهم الحنين دعوته المباركة فانهم شاهدوا المعجزة تلو المعجزة • لم تشاهد البلدة عاما رخيا مباركا مثل هذا العام الذى أسموه عـام الحنين فان الحـكومة سمحت للقرية بزراعة القطن الذى ارتفعت أسعاره ارتفاعا منقطع النظير حتى وصـل ريع محجوب أحـد الرجال الذين شهدوا الحادث أكثر من ألف جنيه • كما أن الحكومة بنت دون سبب واضح لأبناء القرية معسكرا كبيرا للجيش فى الصحراء على بعد ميلين من قريتهم • وكان أن انتعشت حـالة البلدة من توريد الخضر واللحـوم والفواكـه واللبن للجيش فارتفعت أسعار منتوجات القرية الزراعية ارتفاعا كبيرا • وقررت أيضـا أن تبنى فى بلدتهم مستشفى كبيرا ومدرسـة

---

(٧٦) **الطيب صالح** . بندر شاه . بيروت : دار العودة ، ١٩٧١ ص ١١ ، ١٢ .

ثانوية ومدرسة زراعية • ولقد زاد ذلك فى حالة الرخاء• ولم يتوقف الأمر عند هـذا الحـد فان الحـكومة قررت ـ ولم يمض شهران على وفاة الحنين ـ أن تنظم أراضيهم فى مشروع زراعى كبير فكان أن غمرت المياه أراض لم تغمر بالمـاء منذ أقدم السنين •

هذا ما حدث للبلدة وأبنائها معجزة تلو معجزة تلفت أنظارهم فيعيدونها للحنين وعلاقته بالزين غير أن حادثا هاما شد انتباههم بأكثر مما شدت هذه المعجزات مجتمعة انتباههم وهو زواج الزين •

فالزين ذلك الدرويش الذى لا تخاف العذارى من اقترابه منهن كما أن امهاتهن وآباءهن لا يقمن له وزنا ولا يخشين من اقترابه منهن سيتزوج من أجمل فتاة فى القرية • نعمة ابنة عمه • لم يبد اعتراضـا على زواج الزين سوى ثلاثة أشخاص كان لكل منهم سبب مختلف عن الآخر فى الرفض •

الأولى كانت آمنة المرأة التى لم تكن على علاقـة طيبة بأم نعمة ومع ذلك فقد اضطرت أن تذهب اليها

تطلب يد ابنتها لابنها ادريس • وكان ادريس معجبـــا بنعمة • ولكن الأم أبلغتها بأن نعمة ما تزال قاصرا لم تصر للزواج بعد • وها هم يزوجونها دون سائر الناس الزين الذى تصفه بالرجل الهبيل الغشيم • كان زواج نعمة اساءة شخصية موجهة لها (٧٧) والشخص الثـــانى هو ناظر المدرسة الذى كان مثل آمنة يشـــعر بلطمـــة شخصية موجهة له ، فلقد طلب يدها من والدها فرفض بحجة أنه يكبر البنت • وحين سمع بخبر خطبتها الزين لم يستطع أداء عمله وأعلن امتعاضه من ســـماع هذا الخبر وأبدى عجبه أن يوافق والد نعمة على زواجهـــا من رجل درويش لا يصلح للزواج (٧٨) •

والشخص الثالث هو الامام • لقد وجدها فرصة ليعلن استياءه من الزين الرجل الوحيد فى القرية الذى يخشاه الامام فى أعماقه فهو الشخص الوحيـــد الذى لايستطيع أن يحتويه أو أن يخضعه وهو القـــادر على مواجهـــة المعترضـــين عليه ومهاجمتهم فى خطبـــه لأنهم

---

(٧٧) **الطيب صالح** • عرس الزين • ص ٤٣ •

(٧٨) المصدر نفسه • ص ٩٠ •

خارجون على التقاليد الدينية والاجتماعية ، أما الزين فليس هناك ما يمكن أن يهاجمه به سوى أن يبلغ أبا نعمة بأنه « مش راجل بتاع عرس » (٧٩) •

أما بقية أهـــل البلدة فان أحدا منهم لم يســخر أو يضحك ولكنهم هزوا رءوسهم وزادت حيرتهم وكأنهم كانوا يتوقعون حدوث الأمر بعد حادث الحنين (٨٠) • فقد رأوا فيه معجزة نبوءة الحنين بأن الزين سيتزوج أحسن بنت فى البلد (٨١) •

كان زواج نعمة من الزين هو الأمر الطبيعى فهى أقرب النساء أن تكون زوجته • وهى معدة بقوة كونية لتكون زوجة الولى •

لقد كانت نعمة داخلة فى محيط صحوة الزين فهى من بين فتيات البلدة التى لا يتحدث عنها أو يعبث بها فانه ما ان يراها قادمة حتى يعود الى صحوه فيصمت ويترك عبثه ومزاحه ويفر من بعد بين يديها ويترك

---

(٧٩) المصدر نفسه . ص ١١١ •

(٨٥) المصدر نفسه . ص ١١٧ •

(٨١) المصدر نفسه . ص ٦٧ •

لها الطريق (٨٢) • كانت تغار عليه وتكره منه أن يتضاحك مع النساء وجدته يوما يضاحكهن كعادته فانتهرته قائلة : « ما تخلى الطرطشة والكلام الفارغ وتمشى تشوف أشغالك (٨٣) ولم يكن الزين يرد عليها وانما كعادته معها يعود الى صحوه فيسكت عن الضحك ويطأطئ رأسه وينسل من بين النساء ويمضى فى سبيله •

كانت نعمة فتاة فريدة داخل البلدة • كانت الوحيدة بين الفتيات التى دخلت الكتاب لتتعلم القراءة والكتابة وفرائض الصلاة وقراءة القرآن • كان فى داخلها شيء مختلف عن كل الفتيات • كانت تحلم بتضحية عظيمة • وكانت فى سن لا يدرك نوع التضحية ولكنها تعرف أنها تضحية عظيمة ستؤديها فى يوم من الأيام • فيها ذلك الاحساس الغريب الذى تحسه حين تقرأ سورة مريم • وهى نفسها تشعر بالاقتراب من أيوب عليه السلام، وتشعر بنشوة عظيمة حين تصل

---

(٨٢) المصدر نفسه • ص ٣٢ •
(٨٣) المصدر نفسه • ص ٣٨ •

الى الآية الكريمة « وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا » وتشدها فكرة وقوف الزوجة بجوار زوجها حتى انها لتتصور رحمة امرأة رائعة الحسن متفانية فى خدمة زوجها .

وتكبر نعمة ويكبر معها هذا الاحساس فانها ما ان بلغت السادسة عشرة من عمرها حتى أخذت والدتها تكلمها عن الرجال الذين أخذوا فى التقدم لزواجها وهم على قدر كبير من السواء النفسى والمكانة الاجتماعية منهم الغنى والمتعلم والوسيم ولكن نعمة كانت ترفضهم جميعا .

أدرك أهلها أنها تضم صدرها على أمر تخفيه عنهم جميعا . غضب منها أبوها ذات مرة لأنها رفضت شابا من شبان القرية يصلح للزواج لها ولم يجد الأب سببا لهذا الرفض وهم بصفعها ولكنه توقف فهو يعرف أنها ليست عاقة ولا متمردة ولكنها مدفوعة بايعاز داخلى من الأقدار على أمر لا يستطيع أحد ردها عنه (٨٤) .

---

(٨٤) المصدر نفسه . ص ٥٣ – ٥٤ .

هذا الغموض فى أعماق نعمة نحو الرجل الذى ستتزوجه محوط بكلمة « الأقدار » انه غموض مرتبط بسر كونى فهى نفسها لا تستطيع أن تتبينه فحين يخطر الزواج على ذهنها تحس أنه سيأتيها من حيث لا تحتسب كما يقع قضـاء الله على عبـاده ، وكما يولد النـاس ويمرضـون ويموتون • مثلمـا يفيض النيـل وتهب العواصف ويهطل المطر وتتبدل الفصول وينبت القمح ويثمر النخل كل عام ، سيكون زوجها قسمة قسمها الله لها فى لوح محفوظ قبل أن تولد وقبل أن يجرى النيل وقبل أن يخلق الأرض وما عليها •

كانت تشعر أن زواجها سيكون مسئولية ملقـاة على عاتقها • لا تحلم كما تحلم الفتيات بفارس يربط فرسه ذات مساء ويدخل ليخطفها من بين أهلها ويهرب بها بعيدا الى عوالم سحرية • انها لا تعرف من رجلهـا قد يكون متزوجا وله أبناء يتزوجها على زوجته الأولى وقد يكون شابا وسيما متعلما أو مزارعا من عامة أهل

الأبلد مشقق الكفين والرجلين ومن يدرى ، ربما يكون الزين (٨٥) .

كانت تكن للزين احساسا خاصا . كانت تراقبه فى عبثه وهزاره عن بعد بعيونها الحلوة الغاضبة منه وعليه (٨٦) تأخذه بجدية مخالفة بذلك كل نساء قريتها مثلما كان أيضا يأخذها بجدية لم يأخذ بها أى فتاة فى القرية .

كان الزين وهو الرجل المؤهل لاستمرار دور الحنين فى حاجة الى امرأة مثلها معدة لأن يكون لها رسالة ، ورسالتها هى رسالة الزوجة الحامية لزوجها التى تعطيه فرصة الاستقرار الوجدانى ليقوم بدوره الكونى داخل مجتمعه وأن ينتقل من دور الذاهل الى دور اليقظ .

تجعل التقاليد الاسلامية الزواج قيمة كبيرة فهو اتمام لنصف الدين . يختلف بذلك عن المسيحية التى تكرم البتولية وتجعل من معظم قديسيها رهبانا .

---

(٨٥) المصدر نفسه . ص ٥١ — ٥٥ .
(٨٦) المصدر نفسه . ص ٣٨ .

صحيح أن بعض المتصوفة المسلمين لم يتزوجوا ولكن ذلك ليس قاعدة ، ويروى الطيب صالح فى مريود أن امرأة أحبت بلالا حبا ملك عليهـا نفسها فلما أعيتها الحيلة ذهبت تشكو الى الشيخ نصر . فأشار على بلال أن يتزوجها فكان رده « يا سيدى روحى فداك . لكن لا تخفى عليك خافية أحوال عبدك المسكين أنا ماشى فى دروب الحضرة وأنت تأمـرنى بأفعـال أهـل الدنيا » (٨٧) ولم يقبل الشيخ رأى تلميذه فان حكمـة أرادها الله فى هـذا الحب وقال له « يا بلال ان دروب الوصول مثل الصعود فى مسالك الجبال الوعرة مشيئة الحق غامضة . يا بلال ، ان حب بعض العباد من حب الله ، وهـذه المسكينة تحبك حبا لا أجده من جنس أحب أهل الدنيا فعسى الحق أن يكون أرسـلها اليك لأمر أراده عساه جلت مشيئته أراد لك أن يختبر مقدار حبك بميزان حب هذه المسكينة لك فاما صحوت وانقطع سبيلك واما ازددت ظمـأ الى كأس الحب السرمدى ويكون سبحانه وتعالى قد أنفذ مشيئته باذلالك فى

---

(٨٧) الطيب صالح . مريود . ص ٦٤ ــ ٦٥ .

ارادته القصوى » (٨٨) وكان أن صــدع بلال لشيخه وتزوجها ولم يجتمع بها الا ليلة واحدة ثم استأذن شيخه فى أن يبرىء ذمته منها •

وبلال هنا مختلف عن الزين • بلال مجذوب سالك له لحظات صحو كما أن له لحظــات محو بينما الزين مجذوب غير سالك لحظاته كلها محو • فهو بحاجة فى لحظة تحوله الى المجــذوب السالك الى التعــامل مع المجتمع بعلاقة زواج •

ولقد كانت حواء المرأة التىعلقت ببلال مختلفة عن نعمة كانت مهذارة حلوة الحديث متبرجة فى حديثها شىء من تفحش وتغنج وهــذا ما أدى لطمع الكثيرين فيهــا الا أن المرأة تمنعت واعتصمت ولم تقبــل منهم طالب حلال أو حرام • وحين أحبت بلالا أخذت تتعرض له فى صلاته وعبادته • لقد كانت حواء تمثل الفتنة لبلال فكان زواجه منها اختبارا لتقواه كما أخبره الشيخ فاما صحوت وانقطع سبيلك واما ازددت الى كــأس الحب

(٨٨) المصدر نفسه . ص ٦٥ .

السرمدى • وكان أن خــاض بلال التجربة بنجــاح أما المرأة فقد كانت تجربة زواجها من بلال تجربة جديدة خاضتها لتعود زاهــدة • رفضت أن تتزوج « وانصرفت لتربية ابنها من بلال فكان شأنها فى ذلك شأن المتصوفة العاكفين » (٨٩) وهى بذلك تختلف اختلافا كبيرا عن نعمــة التى لم تكن تمثل فتنــة للزين وانما استقرارا واكتمــالا •

وقد أعدت نعمة للقيام بدور رفيقة الصوفى حتى تمنح زوجها الحب والوقت ليواجه علاقته بالعالم دون خوف أو قلق أو خشية ، أى أن تتحمل عنه أعباء الحياة اليومية فلا تستغرق وقته •

ولقد بدأت الفتاة تتبين ذلك تدريجيا فانه عندما يخطر الزين على بالها كانت تحس احساسا دافئا فى قلبها من نوع ذلك الشعور الذى تحسه الأم نحو أبنائها • يمتزج بهذا الاحساس شعور آخر بالشفقة ، فهى كثيرا ما تراه كطفل يتيم عديم الأهل فى حاجة الى الرعاية ومع

(٨٩) المصدر نفسه •

أن الأمر مبرر فهو ابن عمها وما فى شفقتها عليه شيء غريب (٩٠) الا أن الاحساس كله كان تمهيدا لأن تتجه نعمة بكليتها الى الزين فتؤمن أنه رجلها الذى أعدت لتكون زوجته ، وفى هــذه الحالة لن تقف قوة أمام اتخاذ قرارها .

حانت لحظــة اتخاذ القــرار ، حين عاد الزين من المستشفى فى مروى ، حيث ظل آسبوعين للعــلاج اثر الضربة التى ضربها سيف اياه . عاد الزين بوجه نظيف وثياب بيضاء ناصعة .

وحين ضحك لم ير الناس فى فمه ما عهدوا سنتين صفراويتين وانما رأوا صفا من الأسنان اللامعة فى فكه الأعلى وصفا من الأسنان فى فكه الأسفل . وكأنمــا الزين تحول الى شخص آخر . فى ذلك الوقت نظرت نعمة اليه فرأته لا يخلو من وسامة (٩١) . هنا أخذت نعمــة تنظر اليه نظرتها الى الرجــل . ولم يبق الا أن يتطور الموقف ليتحرك نحو تحقيق هذا الزواج .

---

(٩٠) المصدر نفسه . ص ٥٥ .
(٩١) المصدر نفسه . ص ٦١ .

لقد أخذت القرية تروى قصصا عن كيفية حدوث هذا الزواج • ومن هذه القصص أن الفتاة رأت الحنين فى منامها ، « فقال لها عرسى الزين • اللى تعرس الزين ما بتندم وأصبحت الفتاة فحدثت أباها وأمهـا فأجمعوا على الأمر » (٩٢) وقصـة أخرى تذكر « أن الزين هو الذى طلب الزواج من نعمـة وأنه صادفها فى الطريق فقال لها بت عمى : تعرسينى ؟ فقالت نعم • وانه هو الذى ذهب الى عمه وكلمه فى الأمر فقبل (٩٣) •

وقصة ثالثة تذكر (أن نعمة وجدت الزين فى حشد من النساء يغازلهن ويعبثن به فحدجتهن بنظرة صارمة وقالت لهن • باكر كلكن تأكلن وتشربن فى عرسه • وخرجت من وقتها فقالت لأبيها وأمها ، فوافقا على ذلك » (٩٤) •

وعند النظر الى هذه القصص الثلاث يمكن معرفة اتجاه الرأى العام فى البلدة ازاء زواج الزين • أحدها يرده الى الحنين والآخر يجعل من الزين واعيـا مدركا

---

(٩٢) المصدر نفسه • ص ١١٦ •

(٩٣) المصدر نفسه •

(٩٤) المصدر نفسه •

ما يقول حين يسأل ابنة عمه ان كانت تقبل الزواج منه.
أما القصة الثالثة فتؤكد على نزعة الشفقة عند نعمة .

وعلى أية حال فان هذه القصص الثلاث من الممكن أن تكون مقبولة غير أنها ليست الحقيقة . اذ آن الحقيقة هى أن نعمة أصبحت مهيأة تماما بعد وفاة الحنين لتكون زوجة الزين . وليبدأ دوره كوريث لدور الحنين فى عالم الروح . فان الفتاة قررت بما فيها من عناد واستقلال فى الرأى وربما بوازع الشفقة على الزين أو تحت تأثير القيام بتضحية وهو أمر منسجم مع طبيعتها أن تتزوج الزين على كل فهذا لا ينفى أن قوة خفية تدفع الفتاة نحو الزين .

وكان من الطبيعى أن تقوم نعمة بخطبة الزين وليس العكس أن يكون هو اختيارها ، وأن تدافع عن هذا الاختيار أمام أى اعتراض . وحين أبلغ الامام أباها رأيه فى زواج نعمة من الزين لم تبلغه فقط بما يقول الامام وانما ذكرت له ما سيحدث فى المستقبل وكأنه لا يعلمه : « يوم الخميس يعقدوا لك على أنا وانت

نبقى راجل ومره ونسكن سوا ، ونعيش سوا » [٩٥] •

دفع ما صنعته نعمــة بالرجال الذين باركهم الحنين والملتصقين بالزين الى المزيد من احترامها وعلق أحدهم على ذلك بأنها فتاة ليس لها مثيل وانها ستمشى الزين « فوق العجين ما يلخبطه » [٩٦] أى أن الرجال الآن اجمعوا على أنها الفتــاة التى يحتاجها الزين والتى ستقود طريقه وستحمل عنه مشاق أعباء الحياة اليومية وانها ستوجه خطاه نحو حياة جديدة •

وكان يوم الخميس يوم حفل زواج الزين يوما جديدا أيضــا فى تاريخ البلدة • لقد بدا وكأنه حفــل للبلدة كلها لا لزواج الزين فقط وانما لتتويجه لحياة جديدة يكون فيها الخليفة الحقيقى للحنين •

دخلت الأفراح جميــع بيوت البلدة وســاهم فى العرس كل أبنائها دون استثناء حتى الأشخاص الثلاثة الذين آلمهم هذا الزواج •

انطلقت الزغاريد من بيت الزين ، زغردت أم الزين

---

(٩٥) المصدر نفسه • ص ١١٢ •

(٩٦) المصدر نفسه •

فزغرد معها جيرانها وأحباؤها وأهلها وعشيرتها • وكل من يتمنى لها الخير (٩٧) ولم تبق امرأة فى البلدة الا وزغردت حتى آمنه زغردت من شـدة غيظها (٩٨) • وعشـمانه الطرشاء زغردت فرحة بزواج الزين •

قدم الناس من كل فج ليحتفلوا بعرس الزين • تقاطر على الحفل عرب القوز يتسابقون على جمالهم وجاء فريق الطلحة عن بكرة أبيـه • وجاء أناس من بحرى • وجـاء أناس من قبلى • جاءوا عبر النيـل بالمراكب كما جاء آخرون من أطراف البلد بالخيول والحمير والسيارات جاء تجار البلد وموظفوها ووجهاؤها وأعيانها • حتى الحلب المرابطون فى الغابة كان لهم مكان فى العرس فلقد حضروا ليحتفلوا بعرس الزين •

لم تذكر القصة ان كان هؤلاء القادمون قد دعوا أم انهم حضروا من تلقاء أنفسهم • وأيا كان حضورهم فان هذه الجماعات القادمة كانت تبدو مدفوعة للحضور

---

(٩٧) المصدر نفسه • ص ١١٧ •
(٩٨) المصدر نفسه • ص ١١٨ •

من تلقاء نفسها لا لتحضر حفل عرس وانما لتحضر حفلا خاصا لرجل له فى نفسها مكانة خاصة • صورة الحفل تبدو كصورة المولد ، فلقد ماج الحى من أركانه وامتلأت الدور بالوافدين لم يبق بيت الا أنزلت فيه جماعة من القادرين بما فيهم دار الناظر والقاضى الشرعى (٩٩) •

شملت الفرحة الحى كله والقادمين ـ دقت الطبول ولوح الرجال بأيديهم وهزوا بالعصى والسيوف وأطلق العمدة بندقيته بالأعيرة النارية • اجتمعت فى هذا اليوم النقائض كلها جوارى الواحة يغنين ويرقصن ، والمشايخ يرتلون القرآن فى بيت آخر ، والمداحون ينقرون الطبول فى بيت ثالث والشبان يسكرون فى بيت رابع • تصف القصة الفرح كأنه مجموعة أفراح (١٠٠) وقد يظن أن هناك تناقضا أن يحدث هذا فى فرح تتويج الولى والحقيقة غير ذلك فالصورة نفسها تجعل الفرح مولدا لولى بالشكل التقليدى

---

(٩٩) المصدر نفسه .

(١٠٠) المصدر نفسه . ص ١٢٢ .

للمولد • كل الناس يجدون مكانا فيه فالولى لا يرفض أحدا قط •

ونظرة الى الغناء الذى غنى فى تلك الليلة يكشف تماما أنها فعلا ليلة الولى •

فالغزل الذى كانت تغنيه فطومة المغنية (١٠١) •

التمـر البيمـرق بـدرى
سارق نومى شاغل فكرى(١٠٢)

أو :

الزول السـكونه قشـابى
طول الليل عليه بشابى (١٠٣)

لايخرج هـذا الغزل عن لون الغزل الصـوفى ينطلق هذه الليلة ليكون السماع • وحين دخل الزين ليرقص فى حلقـة الرقص من تلقاء نفسـه لم يكن فى الحقيقة يرقص وانما كان يتحرك مع السـماع حركة الصوفى • وكان صوت فطومة يتغنى بالزين :

(١٠١) المصدر نفسه •
(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ •
(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ •

انطق يا لسان جيب المديح أقداح
الزين الظريف خلا البلد أفراح (١٠٤)

كانت تمدح وليا جلب الفرحة لبلده .

وكان طبيعيا أيضا أن ينطلق المداح بمدح النبى :

نعم العبا وروح سبل القرش شاف
العلم لوح زار جد الحســين (١٠٥)

تدمع أعين الناس وبعضهم يجهش بالبكاء خاصة الذين حجوا وزاروا مكة والمدينة والأماكن التى يصفها المــادح . وهو يمضى فى انشاده :

نعم العبـا وحـادا
بى ســهل القريش العــلم نــادى
زار جد الحســين
فرشوالو الزبيب والتين والحبحب
كاسات من حميا قالوا له هنــاك اشرب
زار جد الحسين (١٠٦)

كان الفرح لحظة صوفية فى حياة صوفى كما أنها

---

(١٠٤) المصدر نفسه .
(١٠٥) المصدر نفسه . ص ١٢٤ .
(١٠٦) المصدر نفسه . ص ١٢٥ .

لحظة فى حياة البلدة تكشف عن عالمهم فهم يتحولون من الرقص المديح ومن المديح للرقص تتحرك أرجلهم فى حلقة الرقص ويثور حماسهم ويعيشون لحظة الصمت وفى حلقة المديح يعيشــون الشــوق وتدمع أعينهم • مقابلات لا تكون الا فى احتفالات مولد الولى •

بعد كل هذا هل أدرك الناس من هو الزين ؟ أم أن ما يحدث هو حفل عرس عادى •

ان القصة توضح أن الناس أخذوا يدركون منذ أن قدم الحنين ليوقفه عن مقتل سيف الدين حقيقــة الزين • لقد بدأ ذكر الزين والولاية فى بداية القصــة مقترنة بأم الزين ، فانها تروج « أن ابنها ولى من أولياء الله الصالحين » • ولا تترك القصة هــذه العبارة دون أن تذكر مباشرة « وقوى هــذا الاعتقاد صداقة الزين مع الحنين » (١٠٧) ثم تذكر صورة الحنين تؤكد اعتقاد الناس فيه كولى دون أدنى شــك فى ذلك • وكذلك تذكر القصــة صداقاته بمن تعدهم القرية من الشواذ

---

(١٠٧) المصدر نفسه • ص ٣٥ •

وهم المحتاجون الى الزين وحين حضر الحنين ليوقف الزين عن قتل سيف لم يعد هناك شك فى أن هنـاك علاقة كونية تربط بينهما .

وحين كان الزين ينظر الى الامام لحظة عقد قرانه فان القصة تذكر أنه ربما أحس بقلق من هذه النظرات. وتذكر القصة بعد ذلك مباشرة جملة خبرية . تؤكد أن الامام يعلم أن فى الزين قبسا من نور « فكل أحد يعلم أن الزين أثير عند الحنين وهو لا يصادق أحدا الا اذا أحس فيه قبسا من نور » . وكان تحكم الحنين فيه ساعة ضربه لسيف أكبر دليل على ذلك ولقد أصبح هـذا الحادث حكاية يذكرها الرجال الذين شاهدوا هـذا الحـادث . ولعل أهم حدث كان له وقعـه الكبير فى أنفسهم هو زواج الزين فهم قد أدركوا وأدرك الناس معهم أن زواج الزين ليس فعلا عبثيا وانما فعل كونى. وحين ذكر ناظر المدرسة المستاء من زواج الزين « أن الزين درويش مالو ومال الزواج ؟ » (١٠٨) . رد عليه عبد الصمد أحد أبناء البلدة باقتناع عميق « حاسب

(١٠٨) المصدر نفسه . ص ٩٠ .

جنابك من ذكر الزين دا راجل بركه صديق الرجل الصالح الحنين » [١٠٩] •

ولقد تبلور الموقف تماما فى ليلة زفاف الزين وتبدت علاقة الزين الكونية بالحنين ، والدور المقبل عليه واضحا فلقد اختفى الزين والحفل فى قمته وتنبه محجوب الى غيابه فسأل عنه أصدقاءه الذين تنبهوا بدورهم لهذا الغياب ولكنهم لا يعرفون أين هو ؟ فأخذوا يبحثون عنه بهدوء حتى لا يحس أحد بهذا الغياب • بحثوا عنه فى كل مكان دون أن يتركوا موضعا فانهم حتى هذه اللحظة يتصورون أنه قد يغفل عن أى شيء حتى أمر زواجه • بحثوا عنه فى الصحراء قبالة الحى وبعضهم ذهب الى ناحية الحقول حتى ضفة النيل• ودخلوا بيتا بيتا وتفرسوا تحت جذع كل نخلة وشجرة ولم يبق غير المسجد الذى لم يدخله الزين قط ذهبوا ليبحثوا فيه عنه ولكن دون جدوى • وفقدوا الأمل فى العثور عليه •

---

(١٠٩) المصدر نفسه •

وآخر ما وصل اليه تفكيرهم أنه هرب ولكن الى أين ؟ انهم بالطبع لا يعرفون ما دامت المسألة مسألة هروب ، فما زالت بقية صورة الزين المذهول تعيش فى أذهانهم ، الا أن خاطرا خطر فجأة فى ذهن محجوب وصاح « المقبرة » (١١٠) ، لم يصدقوا أن يكون فيها فى ذلك الوقت من الليل ولكن محجوب سار أمامهم فتبعوه . وحين وصل الأمر بمحجوب أن يفكر فى المقبرة يكون قد اكتمل الاعتراف بصورة الزين الولى ، فمحجوب هو أكثر الرجال ايمانا بالعقل وأقلهم ايمانا بالمعجزات وبكرامات الأولياء .

لقد كان عليه أن يرى بالفعل كما يرى معه الرجال الآخرون علاقة الزين بالحنين بعد مماته . ويبدو أنه حين فكر فى المقبرة مكانا يلجأ اليه الزين كان ذلك اعترافا منه بالأولياء وبتقبل رؤية الواقع الجديد لصورة الزين فقد كانت علاقته وعلاقة أصدقائه بالزين يغلب عليها الشفقة ، أما الآن فهو يدرك أنه حين يقدم للزين

---

(١١٠) المصدر نفسه . ص ١٢٦ .

عطفه وشفقته لا يقدم له الكثير فهو يأخذ منه الحب والبركة .

وصل الرجال الى المقبرة وسمعوا صـوت نشيج خافت يصـدر من الضريح الكبير الذى بدا غامضـا مخيفـا . سار محجوب حتى وقف فـوق شبح الزين الجاثم عند قبر الحنين . سأله محجوب عن سـبب حضوره هنا بينما الجميع يراقبون الزين فى حيرة . هذه الحيرة التى عاشوا بها مع الزين طيلة حياته بينهم. فوجود الزين هنا لايمكن أن يكون الا وفـاء لشيخه الذى يتمنى أن يكون موجودا معه الليلة بجسده . كان الزين هنا فى قمة وعيه بالوجود وحين خرج معهم كان أيضا فى قمة وعيه بالوجود .

كان النص واعيـا بما يصـور ، فلقـد أظهـر الزين « مثل الديك بل أجمل مثل الطاووس » (١١١) وكانت ملابسه التى يلبسها اياه أهل قريته ، القفطـان الأبيض والحزام الأخضر توضح وعيهم بالموقف كله لقد

(١١١) المصدر نفسه . ص ١٢٠ .

وقف بينهم وفى يده سوط طويل من جلد التمساح .
ولقد ظهر التمساح قبل ذلك حين ألقى الزين بسيف على الأرض وقد أغمى عليه . يذكر سيف بعد أن فقد وعيه أنه « رأى تمساحا ضخما فى حجم الثور الكبير فاتحا فاه وانطبق فكا التمساح عليه وجاءت موجة كبيرة كأنها الجبل فحطمت التمساح فى هوة سحيقة ليس لها قرار » (١١٢) .

التمساح رمز الاخصاب بين أبناء وادى النيل ومصدر الخير ، يتفاءل به كثير من أبناء الوادى ويضعونه محنطا أمام محلاتهم التجارية وهو أحد الآلهة المصرية القديمة الممثلين للنيل يهاجم سيف الدين فاعل الشر ويبين له ما يجب أن ينال من عقاب اذا استمر فى شروره. جلده فى يد الزين سوط يحركه كيف يشاء .

ولا تتوقف الصور عند هذا الحد وانما تبرز فى الخاتم الذى يلبسه الزين ليلة زفافه ، فقد كان له فص من الياقوت فى هيئة رأس الثعبان . والثعبان غير السام

---

(١١٢) المصدر نفسه . ص ٧٢ .

عند العامة هو الولى الحافظ وعند بعضهم هو القطب .
لقد عرف الزين نفسه وعرفه مجتمعه .

عاد الى حلقة الرقص فانفلت يقفز قفزة عالية فى الهواء ليستقر فى وسط الحلقة ووجهه مازال مبللا بالدموع مستجيبا للسماع الصوفى بحركة تسمى الرقص ويفور المكان وقد نفث فيه الزين طاقة جديدة وهو يصيح بأعلى صوته للناس « ابشروا بالخير .. ابشروا بالخير » (١١٣) وكأنما يمنح الناس جميعا ، التقى والعاصى البركة والأمان فهو يتحكم الليلة فى عالمهم الروحى . واذا كانت اسطورة الولى انتهت بالعرس فهل معنى ذلك أن سيرته قد توقفت ؟ لم يكن النص محتاجا للحديث عنه بعد زواجه ، فسيرة حياته قد ذكرها عند حديثه عن الحنين . فالزين فى هذه اللحظة يعيش طريق الحنين بل هو الحنين نفسه ، فأسطورة الولى فى مرحلة ما قبل العبور وضعت تحت اسم الزين وأسطورته فيما بعد العبور يمكن أن توضع تحت اسم الحنين .

---

(١١٣) المصدر نفسه . ص ١٢٨ .

ولقد رسمت أسطورة الولى منذ ميلاده حتى وفاته فى قصة عرس الزين • غير أنها لم تبين كيف توفى الولى ؟ وكيف استقبل الناس وفاته • وقد وضحت فى قصة « مريود » وهو يروى عن وفاة الولى بلال • ولعل هذه الصورة هى أبهج صورة ترسم للموت •

لقد امتنع بلال عن الآذان ودخول المسجد بعد وفاة شيخه واحتجب • وذات فجر استيقظ الناس على صوته ينادى من على مئذنة الجامع • صوت وصفه الذين سمعوه بأنه يأتى من أماكن شتى ومن عصور غابرة وأن ود حامد ارتعشت لرحابة الصوت وأخذت تكبر وتكبر وتكثر وتتسع فكأنها مدينة أخرى فى زمان آخر • قام كل واحد منهم من فراشه وتوضأ وسعى الى منبع الصوت ، كأن النداء عناه وحده فى ذلك الفجر • ولما وقفوا للصلاة رأوا بلالا يلبس كفنا • وكان الجامع غاصا بخلق كثيرة من أهل البلدة ومن غير أهل البلد • كان أمرا عجيبا كبر للصلاة كما كان يفعل أيام ود حبيب ثم وقف ليصلى بهم ، فلم يقف حيث

كان يقف الشيخ ، بل وقف معهم فى وسط الصف الأول، وهو على تلك الهيئة قرأ سورة الضحى بصـــوت فرح فاذا بالآيات نضرة كأنها عناقيد كرم . وبعد الصـــلاة التفت اليهم بوجه متوهج سعيد وحياهم مودعا . وطلب منهم ألا يحملوه على نعش بل على أكتافهم وأن يدفنوه بجوار شيخه نصر الله ود حبيب على أن يتركوا بينه وبين الشيخ مسافة تقتضيها أصول الاحترام والتبجيل . بعد ذلك تمدد على الأرض عند المحـــراب وتشـــهد واستغفر ، والناس ينظرون فى رهبة ودهشة . ثم رفع يده كأنه يصـــافح أحدا وأسلم روحـــه الى بارئها . وحملوه من موضعه ذاك من الجامع الى المقبرة وقالوا انه مشى فى جنـــازته خـــلق كأن الأرض انشقت عنهم ودفنوه عند الشروق فيما رووا » (١١٤) .

ولم يتوقف الأمر عند هذا بل تكتمل الصـــورة الكونية لوفـــاة الولى لحظة الصلاة على جثته اذ تعود صورة الشيخ نصر الى الأذهان فيذكرون أن الشخص

---

(١١٤) **الطيب صالح** . مريود . ص ٤٨ – ٤٩ .

الذى أم بالناس الصلاة كان مهيبا لم ير وجهه أحد ولكن أكثرهم قال انه كان كأنه الشيخ نصر الله ود حبيب . فهل عاد الشيخ من عالى الأرواح ليصلى على تلميذه ؟ جعلت هذه الصورة للموت طعما جديدا كل رجل شهد وفاة بلال الا وقد اشتهى أن تقبض روحه فى تلك الساعة ، فقد جعل مذاق الموت فى أفواههم كمذاق العسل (١١٥) .

ان عالم الأرواح عند الصوفية عالم خفى ، فالصوفى لا تنتهى حياته بموته اذ أن جانبا آخر يولد مع وفاة القديس وهو دوره فى « التكوين » لقد ربطه باعادة تغيير فى بعض مظاهر الطبيعة التى يعجز العلم عن تفسيرها . فقد حدثت باعتراف أهل القرية معجزات خارقة توالت عليهم لعل أبسطها سقوط الثلج فى منطقة صحراوية حارة فقد تم « التكوين » الجديد فى عملية الاخصاب فالعاقرات انجبن وولدت البقر والغنم اثنان وثلاثة فى البطن الواحدة .

---

(١١٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

واستمرار دور الولى بعد وفاته فى عملية الاخصاب المتجدد يجعل لقبره مكانة مقدسة فى عالم الاحياء .

لقد رسمت القصة ضريح الولى بأنه أكبر ضريح فى الجبانة ولم يركز على صـــورة هذا الضريح فى قصة عرس الزين الا أنه ركز عليه فى قصة دومة ود حامد .

والقصـــة تحكى العقيدة التى ترتبط بقبر الولى فانه حين يموت الولى قد تضيع سيرته ولا يبقى من هذه السيرة ســـوى قبره ففى ريف مصر والسودان قبور كثيرة لأولياء يقدمهم الناس دون أن يعرفوا شيئا عن حياتهم فقد تبقى قصة الحنين وقصة الزين تنمو عليها أسطورة تمثل اطارا عاما لحياة هـــذا الولى فلابد أنه ثار من أجل دينه وأنه اختار مكان موته كما حدث فى قصة دومة ود حامد . واذا كان المكان الذى اختاره الولى قحلا فلابد أن تظهر الكرامة فى « تكوين » يبدى معجزة للأحياء فتظهر الدومة عقابا خرافيـــا باســـطا جناحيه على البلد . لم يزرعها أحد وأغلب الظن أنهـــا نمت وحدها ولا يذكر أحد كيف نمت فى أرض حجرية

ترتفع على الشاطىء (١١٦) • وليس التكوين متوقفا على الدومة فان البلدة كلها بأهلها وسواقيها وعمارها قد انشقت عنها الأرض • فقد كانت خرابا قبل آن يصلها الشيخ •

وهناك عقيدة شائعة بين الكثير من المسلمين بأن روح الولى بعد وفاته تظل « فاعلة » مؤثرة فى المجتمع تقضى حاجات المحتاجين وتقوم بشقاء المرضى • وراوى قصة ود حامد يذكر أنهم يذهبون الى الدومة ويستجيرون بود حامد • وهناك امرأة تورم حلقها فأقعدها طريحة الفراش شهرين وتكاثرت عليها الحمى فنهضت من فراشها سحرا وتحاملت على نفسها حتى أتت دومة ود حامد ووقفت تحتها وهى لا تكاد تقوى على الوقوف ونادت بأعلى صوتها : « يا ود حامد جيتك مستجيرة وبك لائذة •• سأرقد عند ضريحك وتحت دومتك ، فاما أمتنى واما أحييتنى • ولن أبرح مكانى هذا

---

(١١٦) **دومة ولد حامد** . دار العودة . بيروت : ١٩٧٠ . ص ٣٧ – ٣٨ •

الا على احدى الحالتين » (١١٧) وتستمر المرأة فى قصتها بأنها تقلصت على نفسها وهى تستشعر الخوف وسرعان ما أخذتها نومة • وتذكر المرأة أنها بين النوم واليقظة اذا بها « تسمع أصواتا ترتل القرآن واذا نور حاد كأنه شفرة السكين قد سطع حتى عقد بين الشاطئين ، فرأت الدومة قد خرت ساجدة فهلع قلبها ووجب وجيبا ظنته سيخرج من قلبها • ورأت شيخاً مهيبا أبيض اللحية ناصع الرداء ، يتقدم نحوها وعلى وجهه ابتسامة • ضربها بسبحته على رأسها وانتهرها بقوله « قومى » وتقسم المرأة أنها ما قامت وما تدرى أنها قامت وجاءت بيتها دون أن تعلم كيف جاءت • ووصلت عند الفجر ، وكان واضحا أنها شفيت تماما (١١٨) •

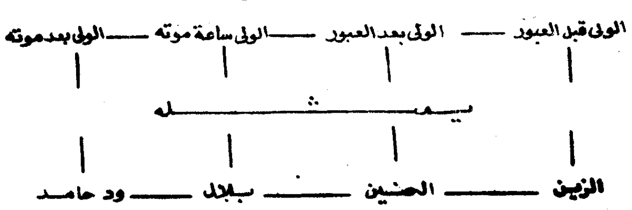
---

(١١٧) المصدر نفسه • ص ٤٤ – ٤٥ •

(١١٨) المصدر نفسه • ص ٤٥ •

هذا النموذج متواتر فى المعتقد الشعبى • صاغه الطيب صالح فى قصصه من معتقدات الناس فكان أكمل صورة يرسمها قاص فى أعماله الفنيـــة للولى • وكان بذلك صانعا لهذه الصورة من الأسطورة الشعبية ، أسطورة الولى •

وبهذه الصورة تتكامل أسطورة الولى لتحدد فى أربع مراحل :



رقم الايداع ٥٠٥٢/١٩٩٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2468 — 0

الهيئة المصرية العامة للكتاب